الفصل الثاني

الدول الصليبيّة
في سورية وفلسطين

أصول دعوة الحركة الصليبيّة

ما الذي حمل الغرب على التدخل في شؤون الشرق ؟ وما هي أصول دعوة الحركة الصليبيّة ؟

إن إعلان الحرب ، من جهة الغرب ضد العالم الإسلامي ، سابق في الواقع للحملة الصليبيّة الأولى . فقد حمل الغرب السلاح ضد المسلمين منذ فترة طويلة ، حيث أن المسلمين أنفسهم كانوا قد هاجموا الغرب في عقر داره ، أي أوروبا ، فإسپانيا[1] وقعت بكاملها تقريباً تحت الفتح الإسلامي منذ الفترة الممتدة بين 711-718 م ، ومنذ ذلك الحين شرعت گاليسيا وآستوريا ووديان البيرينيه بالكفاح بضراوة لرد الغزاة على أعقابهم .

وفي القرن التالي لذلك ، قام مسلمو تونس (سلالة الأغالبة)[2] بفتح جزيرة صقلية من البيزنطيين (فتح پالرمو عام 830 م ، ومسّينا عام 842 م ، وسيراكوزة عام 876 م) . وقد استطاعوا تثبيت أقدامهم حتى في شبه الجزيرة الإيطالية ، حيث احتلوا باري Bari (عام 848 م) وتارانتو Taranto (عام 856 م) . وقامت إحدى فرق المسلمين بعملية اتصفت بجرأة واجتراء خارقين ، تمكنوا فيها من الإغارة على كنيسة مار بطرس الكبرى في قلب روما (عام 846 م) .

---

(1) أي الأندلس ، التي فتحها الأمويون وأقاموا بها إمارة قرطبة في عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الأول (الملقّب بعبد الرحمن الدّاخل أو صقر قُرَيْش) عام 752 م ، وأقاموا بالأندلس حتى سقوط غرناطة عام 1492 م .

(2) حكم بنو الأغلب شمال أفريقيا إبّان عهد العبّاسيين بين 800-909 م ، وكانت عاصمتهم القيروان . مؤسّس دولتهم إبراهيم بن الأغلب وآخرهم زيادة الله عبد الله الثالث .

وجاء رد الفعل المسيحي متباطئاً ، بدأه الإمبراطور الكارولنجي الجسور لويس الثاني Louis II – وهو حاكم كبير لم يُوَفَّ حق قدره – فاستردّ باري من المسلمين (عام 871 م) . وأما البيزنطيون فقد استرجعوا مدينة تارانتو في عهد الإمبراطور باسيل الأول المقدوني ، ولكن المسلمين استطاعوا الاحتفاظ بجزيرة صقلية لفترة طويلة . ولم يتم إجلاؤهم عنها سوى عند مجيء النورمانديين ، فقد نجح الزعيم النورماندي روجيه الأول Roger I^er شقيق روبير گيسكار الشهير Robert Guiscard ، بعد حرب ضروس ، في تحرير الجزيرة (استرجاع مسّينا عام 1061 م ، وكاتانيا وپالرمو عام 1072 م ، وترابـاني عام 1077 م ، وتورمينا عام 1079 م ، وسيراكوزة عام 1085 م ، وجيرجنتي عام 1086 م ، ونوتو عام 1091 م) . وعندما أضحى روجيه الأول كونتاً لصقلية ، تابع أعماله بانتزاع جزيرة مالطة أيضاً من المسلمين (عامي 1091 و 1092 م) .

بعد فترة وجيزة ، وجدت الجمهوريات الإيطالية الساحلية نفسها مُلزمة بالمشاركة في هذه الحروب ، بسبب ما شعرت به سابقاً وحاضراً من تهديد القراصنة المسلمين لمدنها البحرية . وكان المسلمون قد باغتوا جنوة فانتهبوها وأخربوها عام 935 م ، وهذا ما حدث أيضاً في بيزا في عامي 1004 و 1011 م .

ثم في عام 1015 م قام البيزيون يساعدهم الجنويون بعمل انتقامي مضاد ، فأجلوا المسلمين عن جزيرة ساردينيا التي كانوا يتمركزون بها . وبعد أن أخذ البيزيون بثأرهم قاموا عام 1034 م بإنزال بحري في الجزائر وأخربوا مدينة عنّابة . وكذلك في عام 1087 م قامت الأساطيل البيزية والجنوية ، بطلب من البابا ڤيكتور الثالث Victor III ، بإجراء إنزال مماثل في تونس ، ووقعت «المهديّة» العاصمة التونسية في أيديهم ، وقبل إقلاعهم قام المغيرون بتحرير عدد كبير من الأسارى المسيحيين .

وتلا ذلك في القرن التالي قيام نورمانديي صقلية بدورهم في اجتياز البحر وتعقّبهم للمسلمين حتى أعتاب تونس وطرابلس الغرب . وبعدها قام ملك صقلية روجيه الثاني Roger II باحتلال طرابلس (في حزيران 1146 م) ، والمهدية وسوسة وصفاقس (تموز – آب 1148 م) ، وبقيت هذه المدن تحت السيطرة النورماندية لعشرة سنين ، حتى حرّرها المسلمون منهم (تحرير صفاقس عام 1156 م ، وطرابلس عام 1158 م ، والمهديّة عام 1160 م) .

وفي إسپانيا كانت حركة «الريكونكيستا»[1] (حرب الاسترداد) المسيحية قد بدأت منذ زمن بعيد . كانت هذه في الواقع حملة صليبية باكرة وليس كما رأينا مما سبق من «حملات صليبية محلّية» ، بل كانت - على الأقل في مبدئها - مشروعاً مسيحياً عالمياً ، فمراراً ما استُدعي البارونات الفرنسيون للمشاركة فيها .

وأما «أولى الحملات الصليبيّة الفرنسية» حسب تعبير المؤرّخ أوگستان فليش Augustin Fliche ، فكانت تلك التي جيّشها في أراگون عام 1163-1165 م ، بدعوة من البابا ألكسندر الثاني ، كل من إبل دى روسي الشامپاني Eble de Roucy le Champenois ، ودوق أكيتين گي گيوفروا Guy-Geoffroi . ولقد كتب فليش : «إن العالم الغربي ، بأمر من البابا ، يكرّس كل قواه لمحاربة العالم الإسلامي . لقد ولدت فكرة الحملات الصليبيّة» .

وفي عام 1085 م ، أي بعشرة أعوام قبل إطلاق شعار «تلكم هي مشيئة الرّبّ» (*Deus lo volt*) الشهيرة في مجمع كليرمون Clermont الكنسي ، أسفرت حركة «الريكونكيستا» المسيحية من جهتها عن إحراز أول نتيجة حاسمة لها ، ألا وهي استرجاع مدينة طليطلة Toledo ، بيد ألفونسو السادس Alfonso VI ملك قشتالة .

دعوة الحركة الصليبيّة ودورها التاريخي

كانت حركة «الريكونكيستا» الإسپانية (حرب الاسترداد) قد مهّدت في الأذهان لدعوة الحملات الصليبيّة ، وكان البابا گريگوار[2] السابع Grégoire VII (1073-1085 م) ، الذي عمل بفعالية للحثّ على إرسال تعزيزات إلى إسپانيا ، يتطلع إلى إرسال نجدة عسكرية إلى الإمبراطورية البيزنطية ، ولكن وإن كانت هذه الفكرة قيد الطرح ، فإن من توصل إلى تحقيقها فعلاً كان البابا أوربان الثاني Urbain II[3] .

---

(1) العبارة باللغة الإسپانية : Reconquista ، أي إعادة الغزو أو الغزو المعاكس ، وقد اخترنا لتعريبها عبارة : حرب الاسترداد .

(2) كذا يُلفظ الاسم بالفرنسية ، يقابله بالإنكليزية : گريگوري Gregory ، وبالإيطالية : گريگوريو : Gregorio . والأصح كتابة اسمه باللاتينية : Gregorius .

(3) الاسم أصلاً باللاتينية : Urbanus أوربانوس ، لكننا درجنا هنا على نُطقه بالفرنسية .

يُلاحظ أن أوربان كان سابقاً أحد رهبان دير كلوني Cluny[1] ، حيث كان للنّفوذ الكلوني أثره الكبير لصالح حركة «الريكونكيستا» الإسپانية . ونجد في ذلك علاقة جديدة بين هذه الحركة وبين الحركة الصليبية بمعنى أو بآخر .

ولكن من جهة أخرى ، وإن كان البابا أوربان الثاني ما قبل الحركة الصليبية قد بدا بمظهر الموافق لقيام الإمبراطور البيزنطي آلكسيوس كومنينوس Alexis Comnène بتطويع فرق من المرتزقة الفرنجة لصالحه (في مجمع پلـيزانس Plaisance الكنسي ، 1–7 آذار 1095 م) ، فإنه من الخطأ القول بأن هذا الحاكم هو الذي دعاه إلى إعلان الحرب المقدّسة . بل كانت مبادرة الحركة الصليبية إنجازاً خالصاً لهذا الحبر (البابا) ، وقد احتفظ البابا بهذا الأمر في طويّة نفسه لفترة طويلة ، ولم يُفض به إلى الملأ إلا متكاملاً بعد رويّة وإمعان ، بمنشور رسمي في مجمع كليرمون – فيرّان الكنسي Clermont-Ferrand ، في 27 تشرين الثاني من عام 1095 م . وفي ذلك اليوم ، استصرخ البابا الملّة المسيحية لتجريد السلاح لتحرير القبر المقدّس ، ولتحرير مسيحيي الشرق الرازحين تحت طغيان الإسلام[2] !

فبأي شيء تراها تتميز هذه الدّعوة عن أولئك اللواتي أطلقهن في السابق البابوات أو الحكام «اللاتين» ، بهدف تجريد مثل هذه الحملات على مسلمي صقلية وإسپانيا أو أفريقيا ؟

---

(1) كلوني مدينة في شرقي فرنسا أنشئ بها عام 910 م دير للآباء البنديكتيين ، واعتبر نشاطها الديني والسياسي في دعم حركة حرب الاسترداد الإسپانية أساسياً ، كما كان حاله في إطلاق دعوة الحركة الصليبية ذاتها على يدي أوربان الثاني عام 1095 م .

(2) كذا وردت العبارة في النص الفرنسي ، نقلاً عن فحوى خطبة البابا أوربانوس الثاني في كليرمون ، ترجمناها هنا دون أي تصرّف . أما حول موضوع الطغيان المذكور فنذكّر أن مسيحيي الشرق ، وهم شركاء المسلمين في ملكية البلاد وفي كافة حقوق مواطنتها ، إنما عانوا في الحقيقة من اضطهاد الحكام الصليبيين الجدد من اللاتين ، وبخاصّة نذكر منهم المسيحيين التابعين للكنائس غير الملكية في الشرق ، كاليعاقبة والنساطرة . حتى أن أتباع الملّة الأرثوذوكسية في سورية (المعروفون بالرّوم ، أي اليونان) عُدّوا من قبل الصليبيين مسيحيين من الدرجة الثانية ، وذلك كانعكاس للعداء الناشب ما بين مذهب الرومان الكاثوليك في فرنسا وإيطاليا وإسپانيا وإنكلترا ومذهب الأرثوذوكسية السائد في بيزنطة . وخير من فنّد هذه المزاعم وبيّن حقائقها كان المؤرخ الألماني الكبير هانز إبرهارد ماير في كتابه الممتاز عن الحروب الصليبية . راجع :

Mayer, Hans Eberhard, *Geschichte der Kreuzzüge*, Stuttgart 1965. S. 6.

حتى ذلك الحين ظلّت الحملات ضد المسلمين ، في صقلية مثلاً أو في موانئ شمال أفريقية ، محافظة على طابع سياسي صرف . وحتى في إسپانيا حيث كانت حركة «الريكونكيستا» (الاسترداد) كما رأينا إرهاصاً سابقاً للحركة الصليبية ، لم تنتشر هذه الحركة كغيرها إلا ضمن نطاق محصور ، هو شبه الجزيرة الإيبيرية ولمصلحة ممالك محلّية كالكاستيل (قشتالة) أو آراكون . أما دعوة أوربان الثاني القوية الغامرة التي غيّرت تاريخ العالم فقد تميّزت عن المشاريع السابقة لها بطابعها الديني الواضح ، وبأهدافها المتجرّدة منذ البداية وبعالميتها المطلقة .

كانت دعوة البابا لمحاربة الإسلام موجهة إلى الملّة المسيحية قاطبة . ومنذ اللحظة التي أعلن فيها خلفاء المسلمين الأوائل «الجهاد» ضد المسيحيين ، لم تواجه الدّول المسيحية الإسلام – رغم طابعها الديني الذي أشرنا إليه في مكانه – بسوى مقاومة إفرادية . وحتى وإن كانت تلك الحرب بالنسبة لهذه الدول حرباً دينية حقاً فهي قبل ذلك حرب وطنية ، لا بل وحتى حرب قوميات (مثل بيزنطة وأرمينيا) . أما بدعوة أوربان الثاني فقد واجهت المسيحية العالم الإسلامي بحرب مقدسة شاملة . وبهذا المعنى ، صارت الحركة الصليبية مقابلة للجهاد الإسلامي وموازية له تماماً ؛ ولنا أن نسمي الحركة الصليبية إذن «الجهاد المعاكس» .

وهاهنا بدأ الانتصار منذ إعلان عام 1095 م بشكل لم يسبق له مثيل ، وتجاوز هذا الانتصار إلى حدّ بعيد كل المبادرات الكلونية بإرسال فرق شامپانيّة وبورگينية أو أكيتينية إلى إسپانيا . وسَرَت دعوة الحركة الصليبية بسرعة فائقة لأنها كانت ذات نزعة عاطفية أثارت إيماناً روحياً جماعياً ، كما فعلت فيما بعد نزعات الحرية والقومية والعدالة الاجتماعية . وتلك النزعة الفكرية والإيمان الروحاني اللذين ابتدعهما أوربان الثاني في مجمع كليرمون ، كانا هما اللذان أدّيا من خلال أثرهما العميق في عامة الناس إلى تأجيج الانطلاقة الروحية الخارقة في عام 1095 م . وقد كانت في البداية انطلاقة شعبية ، ردّدت بصوت البابا صرخة : «تلكم هي مشيئة الربّ» (*Deus lo volt*)[1] ، التي تجاوبت أصداؤها على مدى القرون . وكان من أثرها على سامعيها أن تصلّبوا[2] (بإخاطة شعار صليب من القماش على ثيابهم كرمز للعهد المقدّس الذي قطعوه على أنفسهم) .

---

(1) العبارة باللغة اللاتينية أصلاً ، وترجمتها بالفرنسية : «*Dieu le veut*» .

(2) من فعل se croiser بالفرنسية ، تصلّب : رسم إشارة الصليب على نفسه .

أجّجت هذه الانطلاقة الجماهير ، ومن شواهد ذلك حملات بطرس الناسك Pierre l'Ermite التبشيرية ونجاحاته (وقد كان رجلاً فقيراً فضلاً عن أن الظروف لم تمهله للوصول إلى مبتغاه) . وعمّت هذه الانطلاقة بالتّدريج طبقة الفرسان ثم طبقة البارونات ، دون أن تصل في هذه المرّة إلى إدراج الأمراء الحاكمين تحت لوائها (وهذا الأمر ذو مغزى) ، بل بقيت مصلحة الحكم العامة مقاومة لتقبّل تلك الحركة الواسعة للإيديولوجية العالمية .

ومثلما ظهر العنصر الإيديولوجي في البداية في جوهر الحركة الصليبية فإنه لم يختف كلياً بسهولة ، ولسوف نرى كيف أن حدّته راحت تتلاشى شيئاً فشيئاً وهذا ما سيتضح في الحملات الصليبية اللاحقة ، بيد أنه سيعود واضحاً وبكامل زخمه في عامي 1248 و 1270 م في حملة الملك لويس[1] التاسع Louis IX . لكنه صار بعد ذلك مرتبطاً بشكل مباشر تقريباً بنزعة الغزو conquête ، ثم بنزعة الاستيطان colonisation .

كانت نزعة الغزو هي السائدة في البداية ، والواقع أن إعلان الحركة الصليبية وقع في أوروبا بمرحلة كانت فيها بأشد توسع لها ، هذا التوسع الذي أطلق ذلك الاستعمار الإمبريالي العسكري لكل من الإقطاعية واللوتارينجية[2] والاستعمار الاقتصادي للجمهوريات الساحلية الإيطالية .

في هذا المجتمع الصاخب الذي لا زال غير مستقر ويفور بالحيوية ، أفاد إعلان غفران الخطايا الذي منحته الكنيسة للمحاربين الصليبيين بإعادة مظهر النقاء وحمل ضماناً معنوياً لأصحاب الضمائر الآثمة ، كالمغامرين والفرسان قطاع الطرق . لكن هذه الفئات الباغية رغم أنها استكانت لفترة ما بتأثير النفحة الرّوحانية لعام 1095 م ، فقد استرجعت مرة أخرى على أرض آسيا نزعاتها الأثيمة الشرسة[3] .

---

(1) اسم Louis بالفرنسية يُلفظ «لوي» ، وحرف S في أواخر الكلمات الفرنسية نادراً جداً ما يُلفظ . مثال : اسم مدينة Paris يُلفظ «باري» وليس «باريس» . غير أن التعريب الشائع للأسماء المذكورة يُثبت لفظ السين ، ولو أنه غلط ، على الطريقة الإنكليزية . ومن الكلمات النادرة التي يُلفظ فيها حرف S : fils, ours, mœurs , sens .

(2) في الفرنسية : Lotharingie ، مملكة أنشأها لوتير الأول في مقاطعة اللّورين شرقي فرنسا .

(3) يلاحظ أن المؤلف يقدّم نظرة موضوعية صادقة لدعوى هذه الحروب ، التي كانت في حقيقة أمرها مشروع غزو واستيطان يتّسم بالنّزعات العدوانية .

وحتى بين البارونات أنفسهم ، سرعان ما تحوّل عهد عام 1095 م المقدّس إلى نوع من أكثر المغامرات ربحاً وفائدة . ومن أبرز من أفاد من الفرص منهم بودوان الأول Baudouin Ier ، وبوهيمون Bohémond ، وتانكريد Tancrède ، الذين رأوا في الحركة الصليبية فرصتهم الذهبية غير المتوقعة لينتزعوا مقاليد السيادة لأنفسهم ، وليأسسوا ممالكهم الخاصة تحت شمس المشرق الساطعة .

وقد آل أمر المحارب الصليبي فيما بعد إلى أن صار مجرد مقاتل غازٍ conquistador[1] ، وصارت كل السبل أمامه مشروعة لتحقيق أطماعه ، من بطش وإرهاب وحنث بالمواثيق ، وحتى الاغتيال نفسه (كمقتل بودوان الأول في الرّها) طالما كان ذلك كفيلاً بمضاعفة مغانمه .

ومن أجل هذه الغايات الشخصية ، لم يتردّد كل من بودوان الأول وبوهيمون[2] بالتخلّي عن الحركة الصليبية ما قبل تحرير القدس بفترة غير قصيرة . ومع ذلك سنرى كيف أن هذين الحاكمين الصليبيين الغربيين سيغدوان أكثر المنتفعين من المشروع الصليبي على الإطلاق ، بودوان كملك للقدس ، وبوهيمون كأمير لأنطاكية . وبذلك ندرك إلى أي حد استُغلّت إيديولوجية الحركة الصليبية كستار لجملة من الأوضاع الراهنة ، المتباينة فيما بينها أشد التباين .

ومن بعد نزعة الغزو ، تبرز نزعة الاستيطان ؛ فما إن خرجت الدول الفرنجية في سورية وفلسطين منتصرة على يدي الحركة الصليبية ، حتى برزت الضرورة الحتمية للاستيطان ، وخلّف ذلك في تاريخ الشرق اللاتيني نزوعاً متعارضاً كلّياً مع الروح التي كانت سائدة عام (1095 م) . وقد توجّب في كل من القدس وطرابلس وأنطاكية والرّها وغيرها ، استنباط صيغة ممكنة للتعايش مع الدول الإسلامية التركية – العربية المجاورة ، وللعيش باحتكاك دائم مع الفلاحين والتجّار المسلمين الباقين في الأراضي التي بحوزة الفرنجة ، وتقبّل الحد الأدنى من التسامح الديني بين المسيحية والإسلام .

---

(1) العبارة باللغة الإسبانية (كونكيستادور) ، وتعني الغازي أو الفاتح .

(2) حول طريقة كتابة هذا الاسم بالفرنسية وأصول لفظه سنأتي على ذلك بالتفصيل أدناه ، وننبّه إلى عدم صواب كتابة اسمه «بوهيموند» كما عوّدنا كتّابنا ومترجمونا العرب عن الإنكليزية .

ففي عكّا Acre أو صُور Tyr ، لم يعد يُنظر إلى المسلم بنفس المنظار الذي ساد في كليرمون . وأما المستوطن الفرنجي في الأرض المقدّسة La Terre Sainte ، أو «المُهر» le Poulain كما سمّاه فيما بعد - من باب الازدراء - الحجّاج الذين لا زالوا متمسكين بروح عام 1095 م ، فقد أَلِف الجوار الإسلامي تدريجياً وتأقلم مع نمط الحياة الشرقية[1] .

وقد وقف هذا المستوطن تجاه الأفكار والعادات الإسلامية - لا بل وحتى حيال العقيدة الإسلامية نفسها - موقفاً متساهلاً (ليبرالياً) ، وقد تحوّل هذا الموقف فيما بعد ذلك إلى حجر عثرة في وجه الحجيج . وعلى النقيض من ذلك ، بدت صورة الحجيج ، ونموذج المحارب الصليبي في الحملات الصليبية اللاحقة ، في ناظري «المهر» المستوطن ، ضرباً من معالم التعصّب .

وبسبب وقوع هذا التضارب ما بين الحجيج والصليبيين الجدد من جهة وبين المستوطنين الصليبيين السابقين من جهة أخرى ، برزت الضرورة الملحّة لتطبيق سياسة محلّية ، أي سياسة فرنجية واضحة تجاه الإسلام بالشكل الذي لا يدع مجالاً لانعدام الرضا عند أمثال أوربان الثاني ، ولكن بما يكفل من جهة أخرى عدم التأخير في تحقيق مشروع «بارونات الأرض المقدّسة» على أرض الواقع .

يمكن القول إن تاريخ الشرق اللاتيني أضحى متمثّلاً بالنزاعات الحادّة من جهة وبجهود التسوية الدائمة من جهة أخرى ، تلك التي قامت بين «فكرة الحركة الصليبية» ، وبين «النزعة الاستيطانية» . وينبغي لنا أن نضيف هنا أن هاتين الوجهتين كانتا متكاملتين ، فلولا الانطلاقة الروحية للحركة الصليبية ولولا النزعة الإيمانية لمجمع كليرمون الكنسي ، لم تكن لتوجد على الإطلاق في سورية أية مستوطنات فرنجية . ولولا تطبيق واقعية الاستيطان على يدي شخص مثل بودوان الأول لما قُدّر لإنجاز الحركة الصليبية أن يدوم أكثر من عشرة أعوام .

---

(1) كتب الرّحالة الشهير ابن جُبير الأندلسي عام 580 هـ : واختلافُ القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع ، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك . وتُجّار النصارى أيضاً لا يُمنَع أحد منهم ولا يُعتَرَض . وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدّونها في بلادهم ، وهي الأمَنَة على غاية . وتُجّار النصارى أيضاً يؤدّون في بلاد المسلمين على سلَعهم ، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال . وأهل الحرب مشتغلون بحربهَم والناس في عافية والدّنيا لمن غَلَب .

الحملة الصليبية الأولى
والمشكلة الشرعية البيزنطية

كان أوّل ما أسفر عنه إعلان الحركة الصليبية في كليرمون من نتائج تسيير حملات من الجماهير الشعبية ، بقيادة بطرس الناسك Pierre l'Ermite ، وگوتييه سانزاڤوار Gauthier-Sans-Avoir . لكن هذه الجموع غير النظامية التي لم يُغن حماسها عما تميّزت به من فقدان كلّي للانضباط ، أثارت بما أتت عليه من أعمال السلب والنهب طوال مسيرتها نقمة البيزنطيين الذين ردّوا عليها بأعمال انتقامية ، ثم حالما تدافعت هذه الحشود نحو آسيا وقعت طُعمة لسيوف الأتراك الذين أبادوها بالقرب من الهرسك على شاطئ بيثينيا (21 تشرين الأول عام 1096 م) .

أما الحملات الصليبية التي قام بتعبئتها البارونات ، فكانت بالطبع أكثر تنظيماً ؛ وكان البابا أوربان الثاني قد عيّن لها كقائد عام المفوّض البابوي أديمار دى مُونتَيْ Adhémar de Monteil أسقف لوپوي le Puy ، الذي اضطلع بشكل فعّال حتى زمن وفاته بأنطاكية (أول آب 1098 م) بدور حسّاس للغاية ، وذلك بالتوفيق ما بين مختلف البارونات الصليبيين . وفي الواقع بقي هؤلاء البارونات محتفظين باستقلالهم الشخصي .

ولقد مضت الجيوش في أربع فرق ، متّخذة من القسطنطينية نقطة تجمعها ، وكان على رأس المجموعة الأولى گودفروا دى بويّون Godefroi de Bouillon دوق مقاطعة لوتارينجيا السفلي la Basse Lotharingie ، أي باربان Barbant ، وهو المقاتل الباسل والمسيحي المخلص ، وفي صحبته أخوه بودوان دى بولونْيْ Baudouin de Boulogne ، الذي يتمتع بشخصية طاغية قوية جديرة بالاحترام والثقة ، وسنرى أن هذا الأخير سيكون المؤسس الحقيقي لمملكة القدس .

وبعد اجتياز هنگاريا والأقاليم البيزنطية في أوروبا بانضباط تام ، بلغ جيش گودفروا القسطنطينية في 23 كانون الأول عام 1096 م . أما الفرقة الثانية فتألّفت من نورمانديي إيطاليا الجنوبية تحت قيادة بوهميون دى تارانتو[1] Bohémond de Tarente ابن روبير گيسكار Robert Guiscard القائد المشهور ، وبصحبته ابن أخيه تانكريد Tancrède .

---

(1) التسمية بالإيطالية هكذا ، وإن كان المؤلف يكتب التسميات بالصيغة الفرنسية .

وبما تميّز به هذان الاثنان من الإقدام النورماندي والحنكة الناپوليتانيّة ، قدّم بوهميون وتانكريد للحركة الصليبية خبرتهما العميقة بالوسط الشرقي الذي عرفاه من خلال الحروب القديمة الماضية لروبير گيسكار ضدّ بيزنطة ، وبالاحتكاك المباشر مع مسلمي صقلية ، وبذلك تصبح هاتان الشخصيتان إلى جانب بودوان الأول أبرز وجوه الغزو الفرنجي .

ووصل هذان الاثنان عن طريق إپيريا Epire ومقدونيا Macédonie في نيسان 1097 م إلى القسطنطينية ، حيث أثار وصولهما إليها مخاوف الإمبراطور آلكسيوس كومنينوس Alexis Comnène ، الذي لم ينس قيام بوهميون هذا نفسه قبيل بضعة سنوات (1081–1085 م) مع أبيه روبير گيسكار بمحاولة لاجتثاث إپيريا ومقدونيا من سلطة بيزنطة ، إلا أن بوهميون وتانكريد ، اللذين كانا سياسيين محنكين فضلاً عن كونهما محاربين صنديدين ، عمدا بصفة مؤقتة إلى وضع حد لطموحاتهما ، حتى أنهما جعلا من نفسيهما – بشكل مؤقت أيضاً– المنافحين عن قيصر الروم «basileus» أمام القادة الصليبيين الآخرين .

أما الفرقة الثالثة ، فقد تشكلت من فرنسيي الميدي le Midi (الجنوب) ، وكانت بقيادة ريمون دى سان جيل Raymond de Saint-Gilles ، كونت تولوز Toulouse ، وهو شخص متقلّب الأهواء كثير الأطماع ، كان يتوق إيّان سنحت له الفرصة ، ومنذ اللحظة الأولى ، إلى إبداء تصلّبه تجاه الدعاوى الشرعية البيزنطية ، متأملاً أن يغدو عن قريب الممسك بخيوط السياسة البيزنطية في المشرق .

وأما الفرقة الرابعة ، فقد تألفت من فرنسيي الشمال ، وفيها بالخصوص كونت النورماندي Normandie روبير كورت أوز Robert Courte Heuse ، وكونت الفلاندر Flandre روبير الثاني Robert II .

وفي القسطنطينية ، حيث حُدِّد مكان التجمع العام ، وجد القادة الصليبيون أنفسهم أمام معضلة تتعلق بالقانون الدولي ، فإن الأراضي التي سوف يحاولون انتزاعها من أيدي الأتراك ، ولنقل على الأقل أراضي سورية الشمالية ، كأنطاكية مثلاً ، كانت لا تزال حتى عهد قريب تابعة للإمبراطورية البيزنطية (انظر فقرة : الانتصارات البيزنطية) .

فانبرى الإمبراطور آلكسيوس كومنينوس يذكّر الصليبين بحقوقه الشرعية ، وكادت محاولته هذه لضمان حقوق دولته في ممتلكاتها القديمة ، بعدما جرى حولها من مفاوضات عاصفة ، أن تتحول إلى صراع مفتوح بين الطرفين (كهجوم گودفروا دى بويّون على أسوار القسطنطينية) ، ولكنها انتهت أخيراً إلى الاتفاق بالتراضي ؛ وتعهّد القادة الصليبيون بأن يردّوا إلى الإمبراطور البيزنطي كل ما يتمكنون من اغتنامه في الأقاليم التابعة سابقاً للإمبراطورية البيزنطية ، أو على أقل تقدير أن يحكموها باسمه كنوع من الإقطاع ، وإثباتاً لذلك استمروا في تأدية فروض الولاء له (نيسان 1097 م) .

وبمقتضى هذا الميثاق ، قام الصليبيون عندما دخلوا الأراضي الآسيوية ، وأجبروا الحامية السَّلجوقية في نيقية على الاستسلام ، بترك مطلق الحرية للبيزنطيين ليحتلّوا المدينة من جديد (26 حزيران 1097 م) .

ومما يجدر ذكره هنا ، أن نيقية لم تكن المدينة الوحيدة التي أُتيح للبيزنطيين استرجاعها من الأتراك بفضل الحملة الصليبية الأولى . فبينما كان الصليبيون يغذّون السير في طريقهم إلى سورية ، استغلّ الإمبراطور آلكسيوس كومنينوس البلبلة التي وقعت بين صفوف الترك ، فانتزع منهم كذلك بقية بيثينيا وإيونيا (إزمير وإفسُس ، عام 1097 م) ، وكذلك ليديا وفريجيا الغربية (1098 م) .

تلك الانتصارات كانت ، في الواقع ، نتائج غير مباشرة للحملة الصليبية الأولى ، ولكنها لم تكن ضئيلة الأثر بالنظر إلى المنجزات الأخرى لهذه الحملة . وتوصلت بذلك مبادرة البابا أوربان الثاني إلى واحد من أهدافها الأولى ، وهو إجلاء الخطر عن القسطنطينية ، وردّ ما كان للحضارة الهيلينية من القسم الأكثر أهمية في آسيا الصغرى .

والذي جرى هنا ، أن كل ما كان يُخشى من وقوعه من فتح الأتراك للقسطنطينية ومن ثَمَّ دخولهم للقارة الأوروبية ، في غضون الفترة الواقعة بين عامي 1081–1097 م ، قد تم تأخيره إلى الأمام بعيداً (عام 1453 م) . لقد كان لهذا الأمر من الأهمية التاريخية ما يفوق بنتائجه حتى فتح القدس نفسها .

* * *

أسباب نجاح الحملة الصليبية الأولى
تفكك العالم الإسلامي عند مجيء الصليبيين

تكشف السهولة النسبية التي تمكّن بها الصليبيون وحلفاؤهم البيزنطيون من الاستيلاء على نيقية ، عاصمة المملكة السَّلجوقية في آسيا الصغرى ، عن مدى تردّي أوضاع العالم الإسلامي في ذلك الوقت .

لنلاحظ بالتالي كم كانت تلك الفترة مواتية لصالح الصليبيين . فلو أن الحركة الصليبية قد أُعلنت قبل ذلك بعشرة أعوام ، فكانت ستصطدم حتماً بالإمبراطورية السَّلجوقية العظمى الموحدة على يدي السلطان مَلكشاه ، وبالعالم التركي الإسلامي الذي يدين بالطاعة لسيد واحد من بُخارى شرقاً إلى سواحل البحر المتوسط غرباً ، وعند ذلك فكان الإخفاق سيضحي مصيراً للحركة الصليبية دون أدنى شك .

ولكن ما جرى كان العكس ، فقد صادف انطلاق هذه الحركة بعد انقسام الدولة السَّلجوقية عام 1092 م ، وفي غمرة النّزاعات على تركة الدولة بين الورثة السلاچقة ، وجدت الحركة الصليبية في هذه الظروف الراهنة غير المتوقعة فرصة اهتبلتها واستغلّتها أيما استغلال . كان كل من سلاچقة آسيا الصغرى وسورية وإيران على حالة من الخلاف مع بعضهم ، وبذلك استطاعت الحركة الصليبية أن تهزم على حدَة سلاچقة آسيا الصغرى ، دون أن يحاول سلاچقة سورية وإيران التدخل .

وحتى في سورية ، كان ملكا حلب ودمشق الشقيقان[1] متخاصمين ، وقد حارب كل منهما الصليبيين على حدة ، ومُنيا بالهزيمة فُرادى . بينما كان سلاچقة إيران الذين لا زالوا محافظين نظرياً على سيطرتهم وأحرزوا مرتبة السلطنة ، قد وقعوا مثل غيرهم طُعمة لصراع الإخوة . ومع ذلك ، فقد قاموا في النهاية بالتدخل فيما يجري بسورية ولكن بعد فوات الأوان ، بعد أن كانت أنطاكية قد ضاعت .

---

(1) يريد بهما رضوان ودُقاق ، ابني الملك تُتُش بن ألب أرسلان السَّلجوقي . فقد كان رضوان أميراً لحلب (1095 م) ، فيما كان أخوه دُقاق أميراً لدمشق . حارب رضوان أمراء الشام مستنصراً تارة بالخليفة العباسي وطوراً بالخليفة الفاطمي ، وحارب الإفرنج منفرداً فهزموه . توفي 1113 م .

إذا كان الورثة السلاجقة رغم ما بينهم من أواصر القربى لم يتوصلوا إلى الاتحاد ضد الحركة الصليبية ، فما تراه الأمر يكون بخصوص الوحدة بينهم وبين حكام مصر من الفاطميين ؟ لقد كان هذا ضرباً من المحال ، فلم يكن ثمّة من رابطة تؤلّف بين الطرفين . فهناك بينهما أولاً الشقّة القومية : فالسّلاچقة كانوا من التُّرك ، أما الفاطميون فمن العرب . هذا ناهيك عن الشقّة الدينية : فالسّلاچقة كانوا من المسلمين السنيّين ، وكان سلطانهم (الذي بإيران) يعتبر نفسه نائباً مؤقتاً للخليفة السنّي في بغداد ، وأما الفاطميون فقد كانوا من المسلمين الشيعة ، وكان خليفتهم بالقاهرة بمثابة الإمام الأكبر للمذهب الشيعي قاطبة .

وكذلك لم يكتف حكام مصر الفاطميون بعدم نجدة سلاچقة سورية ضد الحركة الصليبية ، لكنهم فضلاً عن ذلك استغلّوا انشغال السلاچقة بحربهم مع الصليبيين أمام أنطاكية لينتزعوا القدس لأنفسهم ، وكان ذلك بتاريخ 26 آب 1098 م .

ومن الواضح أن الأوضاع العامة للعالم الإسلامي ساعة قدوم الصليبيين ، تفسّر جانباً كبيراً من أسباب انتصارات الصليبيين ، رغم ما ارتكبه هؤلاء من هفوات .

الحملة الصليبية الأولى في سورية
غزو أنطاكية والقدس

عقب الاستيلاء على نيقية ، نجح الصليبيون في اجتياز آسيا الصغرى قطرياً من شمالها الغربي إلى جنوبها الشرقي . وفي الأول من تموز عام 1097 م حقّقوا انتصاراً في دوريليوم Dorylée على سلطان سلاچقة آسيا الصغرى قليچ أرسلان Kılıç Arslan ، واستطاعوا منذ ذلك الحين أن يتوغلوا في طريقهم دون أن يلقوا مقاومة قوية للغاية ، عبر قونية والسلاسل الجبلية المتاخمة لجبال طوروس (l'Anti-Taurus) ، وأما الأتراك فلم يمكنهم سوى إخلاء السبيل أمامهم . وفي السلسلة المتاخمة لطوروس ومنطقة مرعش ، لقي الصليبيون معونة من الأقوام الأرمنيّة التي هاجرت إلى هذه المناطق واستوطنتها منذ زمن غير بعيد ، كما رأينا سابقاً .

ومن ثمّ انكفأ الصليبيون على سورية الشمالية ، وانبروا يحاصرون أنطاكية التي كانت تابعة آنذاك لأمير من التبعية السَّلجوقية (في 20 تشرين الأول 1097م) . وكان الحصار قاسياً ، دام أكثر من سبعة أشهر ، وهلك في أثنائه كثير من الأشخاص المهمّين الضالعين بالدعوة الصليبية (ومنهم خاصة بطرس الناسك) . وقد حاول ملك حلب السَّلجوقي رضوان بن تُتُش إنقاذ المدينة ، لكنه أخفق في ذلك (في 9 شباط 1098 م) . وفي الثالث من حزيران ، تم أخيراً اقتحام أنطاكية بفضل مبادرة من الأمير الإيطالي النورماندي بوهيمون[1] Bohémond .

وصل إثر ذلك جيش سلجوقي كثيف لنجدة المدينة ، أرسله السلطان السَّلجوقي بإيران ، ولكن بعد فوات الأوان ، فمُني بالانكسار أمام أنطاكية (28 حزيران) . واستطاع بوهيمون النَّزق الماكر ، الذي يعود إليه الفضل في هذه الانتصارات ، أن ينتزع إقرار الجميع على تنصيبه أميراً لأنطاكية ، رغم معارضة بعض القادة الصليبيين الآخرين (مثل ريمون دى سان جيل) . وأما بالنسبة للحقوق البيزنطية السالفة في المدينة ، فقد تظاهر بوهيمون باعتبارها ملغية ، ومع ذلك لم تتخلّ بيزنطة عن هذا الحق مطلقاً ، كما سنرى لاحقاً (فقرة : تملّك فولك صاحب آنجو ، وفقرة : حكم بودوان الثالث) . وهكذا ، تمّ تأسيس إمارة أنطاكية الفرنجية ، التي قُدِّر لها البقاء من عام 1098 إلى 1268 م .

في تلك الأثناء ، كان زعيم صليبي آخر ، وهو بودوان دى بولونْيْ Baudouin de Boulogne شقيق گودفروا دى بويّون ، آخذاً من جهته في تأسيس كونتيّة ذات حكم ذاتي في الرُّها Edesse (أورفة حالياً) ؛ فعندما دعاه أمير تلك المدينة الأرمني طوروس Thoros ليحارب إلى جانبه ضد الأتراك ، تعمّد بودوان تركه وحيداً ليهلك في هذه الفتنة ، ثم ليصفو له الجو فيحلّ محله في حكم الرُّها (في 9 آذار 1098 م) . وتلك كانت بداية كونتيّة الرُّها الفرنجية ، التي دامت منذ عام 1098 إلى 1144 م .

---

(1) حول تعريب هذا الاسم معضلة : فأصله بالإيطالية Bohemondo ، ويُلفظ : بويموندو . بينما جرت العادة أن يسمّيه مؤرخونا العرب : بوهيموند ، بالصيغة الإنكليزية . أما في الفرنسية فيُلفظ : بُوْيْمُون (بإهمال الهاء) ، غير أننا آثرنا رسمه بوهيمون كيما يكون أقرب للفظ الفرنسي . وسبق أن ذكرنا أن الحرف H هو حرف مكتوب وغير منطوق في اللغات اللاتينية كلها ، أما حرف D في آخر الكلمة فالآخر ليس بملفوظ بالفرنسية .

في تلك المرحلة بدت الحركة الصليبية وكأنها تضمحل ، فكل بارون كان يفتّش عما يستطيع الاستئثار به من إقطاع في سورية الشمالية . وسرى ذلك كالعدوى ، وأوضح مثال على ذلك ما فعله كلٌّ من بوهيمون وبودوان ، اللذان تخلّيا منذ تلك اللحظة عن العمل لتحرير القدس ليكرّسا جهودهما ، الأول لإمارته في أنطاكية ، والثاني لكونتيّته في الرُّها ! وأخيراً ، أدّى سُخط جماهير الحجاج تحت تهديد حدوث الفتن إلى إجبار الزعماء الصليبيين الآخرين على الوفاء بعهدهم المقدّس .

وبذلك تابع الجيش مسيرته في كانون الثاني 1099 م من شمالي سورية باتجاه القدس تحت قيادة ريمون دى سان جيل ، الذي كان أول من أذعن لضغط الجماهير (ثم انضم إليه گودفروا دى بويّون بعد فترة قصيرة) . واجتاز الصليبيون وادي نهر العاصي l'Oronte ثم سلكوا الساحل من طرابلس إلى شمال يافا دون أن يتأخروا في الاستيلاء على المدن التي كانت لا تزال باقية - خاصّة طرابلس - تحت سيطرة المسلمين . ثم ارتقوا بعد ذلك هضبة الجليل في طريقهم لمحاصرة القدس .

كما رأينا سابقاً (فقرة : أسباب نجاح الحملة الأولى) أفاد حكام مصر (العرب الفاطميون) من حالة البلبلة التي أصابت السّلاچقة الأتراك ، وخصوصاً عند انشغالهم بمناجزة الصليبيين حول أنطاكية ، لانتزاع مدينة القدس لصالحهم (في 26 آب 1098 م) . لكن لم يكد الفاطميون يشرعون في تثبيت سيطرتهم على المدينة حتى ألقى الصليبيون حولها الحصار (منتصف حزيران 1099 م) .

وهنا أيضاً ، أتيح للحركة الصليبية الاستفادة من الصراعات الناشبة بين المسلمين ؛ هذا فضلاً عن أن السّلالة الفاطمية الحاكمة ، الآخذة في الضعف والانهيار ، كانت بعيدة كل البعد عن محاكاة القدرة العسكرية التركية . وهكذا تمّ سقوط القدس بأيدي الصليبيين في 15 تموز عام 1099 م ، إثر اقتحام مروّع بذل فيه گودفروا دى بويّون Godefroi de Bouillon كل قواه وعرّض نفسه للموت بجسارة ، ولكن أعقب ذلك - مع الأسف - مذبحة بشعة لسكان المدينة من المسلمين[1] . كانت هذه المذبحة لا إنسانية وخاسرة سياسياً ، فإن مسلمي القدس كانوا يشكّلون عقبة أمام الفاطميين لاحتلال باقي مدن الساحل الفلسطيني .

---

(1) لم تكن تيك المذبحة الوحيدة التي ارتكبها الصليبيون ، ونذكّر هنا بمذبحة عكّا 1191 م .

تنصيب گودفروا دى بويّون حامياً للقبر المقدس
طبائع الاستعمار الفرنجي

إلى أي زعيم عهد الصليبيون بحكم القدس التي آلت إلى حوزتهم ؟ لقد فصلوا في هذا الانتخاب لصالح گودفروا دى بويّون ، بالأفضلية على ريمون دى سان جيل (في 22 تموز 1099 م) . ولم يقم گودفروا باتخاذ لقب «ملك» Roi ، بل اكتفى بلقب «حامي القبر المقدّس» Avoué du Saint-Sépulcre ، وهو لقب متواضع ومؤقّت أدّى إلى حفظ النظام النهائي للدولة الفرنجية الجديدة .

وأما باقي البارونات الصليبيين (ريمون دى سان جيل ، وكونت مقاطعة النورماندي ، وكونت مقاطعة الفلاندر) ، فقد غادروا فلسطين بعد أن أعانوا گودفروا دى بويّون في صدّ هجوم فاطمي معاكس (معركة عسقلان في 12 آب 1099 م) . وقد مرّ بنا سابقاً أن بوهيمون قد مكث في أنطاكية وكذلك بقي بودوان في الرُّها . فلم يتبقّ إلى جانب گودفروا سوى بضعة مئات من الفرسان . ومع ذلك تم الحفاظ على المنشأة الفرنجية الجديدة بسبب تفكك أجنحة العالم الإسلامي .

ولكن العجلة التي عاد بها معظم الصليبيين أدراجهم إلى أوروبا ، بعد أن وفوا بعهدهم المقدس ، وهذا التسريح العام السابق لأوانه ، عادا بالوبال على الحركة الصليبية ، وخلّفا وراءهما نتائج خطيرة تبدّت في المستقبل الآتي . ولمّا أحس المسيحيون بالرضا عند إخضاعهم لأنطاكية والقدس ، أهملوا ، وهم في أوج قوتهم ، مهمّة الإجهاز على الأمّة الإسلامية في سورية . وفيما تلا ذلك اكتفوا بتحقيق غزو سورية الغربية وفلسطين ، ولكن رغم ما بذلوه من جهود مضنية ، لم يستطيعوا على الإطلاق الاستيلاء على حلب أو حماة أو حمص أو دمشق .

وعلى هذا ، دام بقاء سورية الداخلية المستندة إلى آسيا السَّلجوقية والعباسية برمّتها في أيدي المسلمين . وتبعاً لذلك ، نجد المستعمرات الفرنجية في سورية تنحسر إلى ما لا يزيد عن شريط ساحلي يتراوح بين الضيق والاتساع حسب تعاقب العهود ، بحيث ما برحت على الدوام مهدّدة بأن تُلقى في البحر بسبب الضغوط التي تأتيها من الخلف ، من البلاد الداخلية .

إن الحملة الصليبية التي دفعت نحو آسيا مئات الألوف من المقاتلين خمدت ووضعت أوزارها ، وأُعلن التسريح قبل أوانه ، فلم يترك لمهمّة ترسيخ الاحتلال وتحقيق الغزو ، سوى قطعات عسكرية هزيلة . فگودفروا دى بويّون ساعة رجوع رفاقه في السلاح إلى أوروبا لم يبق بحوزته غير 300 فارس فقط . وحتى عندما اقتضت سنين «التسريح» الراكدة إحداث نوع من التنظيم الملائم للدفاع الفرنجي ، كما جرى عند نزع القوات العام في عام 1124 م مثلاً ، لم تستطع الدول الفرنجية الأربع مجتمعة تجنيد أكثر من 1100 فارس فقط . وقد بقيت سورية الفرنجية ، طول مدة بقائها ، تعاني من نفس المشكلة .

وفي واقع الأمر ، كانت البابوية منذ غزو القدس معنيّة بإرسال إمدادات صليبية إلى فلسطين ، الغاية منها تحقيق احتلالها . وقد تألفت حملة الإمداد الأولى من اللومبارديين الذين قدموا من القسطنطينية إلى آسيا في شهري نيسان وأيار من عام 1101 م ، وكان على رأس هذه الحملة ريمون دى سان جيل[1] ، Raymond de Saint-Gilles . وبداعي الذهاب لتخليص أمير أنطاكية بوهيمون الذي كان في ذلك الوقت سجيناً لدى الأتراك في نيكسار Niksar ، في جبال پون Pont ، سلك هؤلاء الصليبيون مساراً طويلاً لا مسوّغ له على طول شمال آسيا الصغرى . وقد أحكم الأتراك حولهم الحصار وأبادوهم على بَكرة أبيهم تقريباً ما بين أنقرة وأماصية (تموز – آب 1101 م) .

وأعقب ذلك إرسال جيشي إمداد صليبيين آخرين ، يقود أحدهما كيّوم دى نيڤير Guillaume de Nevers ، والآخر گيّوم التاسع دى پواتييه Guillaume IX de Poitiers ، مع ڤِلف الرابع دوق باڤاريا Welf IV von Bayern ، اللذين سلكا ، بعكس سابقهما ، طريق الحملة الصليبية الأولى ؛ ولكنهما مع ذلك لم يفلتا من البوار على أيدي الأتراك كمن سبقهما ، وذلك بالقرب من إريگلي Erégli في كاپادوكيا (آب – أيلول 1101 م) . لقد أدّى فقدان ما يقارب من 200000 مقاتل في هاتين المجزرتين إلى حدوث نقص فادح في سورية الفرنجية ، فهؤلاء كانوا يمثّلون – من بعد فرق الغزو – «الجيش المنتفع» الذي لا غنى عنه لإعمار المستعمرة الجديدة ، لكن هذا الجيش لم يصل إلى الوجهة المعيّنة له على الإطلاق .

---

(1) أسماء مؤرخونا العرب المعاصرون لتلك الفترة : ريموند صنجيل .

لم يعُد على گودفروا دى بويّون من جرّاء كل ذلك سوى المزيد من إثبات جدارته ، بما أُتيح له من إمكانيات ضعيفة ، خلال فترة تنصيبه حامياً للقبر المقدس التي لم تدُم سوى بضعة أشهر (بين 1099–1100 م) ، نجح بواسطتها في توسيع رقعة الغزو الفرنجي من محيط القدس Judée إلى منطقتي السامرة والجليل . وقد عهد بحكم الجليل ، أو «إمارة طبرية» Tibériade ، كما أُسميت ، إلى أمير إيطالي نورماندي جسور ، هو تانكريد Tancrède ، الذي نجح في إجلاء المسلمين من منطقته (احتلال حيفا في حوالي 20 أب 1100 م) .

ورغم ما تحلى به گودفروا من التقوى ، فقد كاد أن يدخل في نزاع مع بطريرك القدس اللاتيني الجديد ، دَمبير دى پيزا Daimbert de Pise المتشبّع بالأفكار التيوقراطية[1] ، والذي كان يطالب بإلحاق ملكية مدينة القدس المقدّسة بالكنيسة . وكانت هذه المعضلة لا تزال قائمة عندما مات گودفروا (في 18 تموز 1100 م) .

تملّك بودوان الأول

كان الوريث التالي لگودفروا دى بويّون في الحكم شقيقه بودوان دى بولونْيْ Baudouin de Boulogne . ولقد رأينا فيما سبق (فقرة : الحملة الصليبية الأولى على سورية) كيف أن بودوان هذا قد حلّ محل أمير الرّها الأرمني بطريقة خبيثة (وذلك بأن تركه يروح ضحية إحدى الفتن) ، وأضحى حاكماً لهذه المدينة التي أضاف إليها النواحي المجاورة لها : سُمَيْساط Samosate ، وسَرُوج Saroudj ، وغيرهما .

وبذلك تأسّست «كونتيّة الرُّها»[2] comté d'Edesse ، التي دامت من عام 1098 إلى1144 م ، ومشت في الطليعة تجازف بالتوغل في قلب البلاد ، حتى غدت تمتد بعيداً جداً باتجاه ديار بكر وأعالي الرافدين حتى مشارف ماردين . واعتمد بودوان على العنصر الأرمني الذي كان عنصراً سائداً في الرُّها ، فأشرك الأرمن في شؤون الحكم بعد أن قمع بشدّة حركات الانشقاق التي أعلنوها .

---

(1) التيوقراطية : حكومة إلهية يشرف عليها رجال الدين .

(2) مدينة الرُّها هي المعروفة حالياً باسم أورفة ، تقع في منطقة الجزيرة الفراتية جنوبي تركيا .

وهذا ما أبقى كونتيّة الرُّها دولة فرنجية – أرمنية حتى الصميم . حتى أن بودوان نفسه تزوّج فتاة أرمنية تدعى آردا Arda ، فأعطى بذلك مثالاً لهذا النوع من الزواج بالأرمنيات ، الذي سيصبح أمراً شائعاً في طبقة النبلاء الفرنجية خلال فترة الحملات الصليبية .

وعندما علم بودوان بوفاة أخيه گودفروا دى بويّون ، أوكل بكونتيّة الرُّها إلى ابن عمّه بودوان دى بُور Baudouin de Bourg (الذي أمسى فيما بعد الملك بودوان الثاني) ، وخرج من الرُّها ميمّماً شطر القدس كيما يجني ثمار النجاح الذي أحرزه سلفه الملك الراحل (2 تشرين الأول 1100 م) . ولقد حاول ملك دمشق السَّلچوقي دُقاق ابن تُتُش ابن ألپ أرسلان أن يقطع عليه الطريق عند وهاد نهر الكلب شمالي بيروت ، ولكن بودوان استطاع أن يشقّ طريقه ويصل إلى القدس في 11 تشرين الثاني ، حيث لم يسع البطريرك دَمبير Daimbert ، رغم نفوره من ترشيح بودوان ، إلا الاذعان للأمر .

وفي يوم عيد الميلاد (25 كانون الأول) من عام 1100 م ، بكنيسة الميلاد في بيت لحم ، تم تكريس بودوان على يدي البطريرك دَمبير بلقب «ملك القدس» Roi de Jérusalem ، وباتخاذه لهذا اللقب ، على التوّ ، خلف أخاه گودفروا في الحكم . وولدت بذلك الملكية ، التي أحاطها بودوان ، بغية فرض هيبته على من حوله ، بجميع مظاهر الأنظمة الملكية الشرقية ، فبدا في أنظار رعيته وكذلك جيرانه المسلمين ، بمظهر «سلطان مسيحي» . أما البطريرك دَمبير ، فلمّا لبث على معارضته لبودوان ، قام هذا الأخير بإقصائه (عام 1102 م) . ووجد بودوان في الأرشمندريت آرنو مالكورن (الذي ارتقى عام 1112 م إلى سدّة البطريركية) نصيراً طيّعاً ، آزره بإضفاء الشرعية الإكليريكية (الكنسية) إلى مملكته .

عند استلام بودوان الأول للحكم ، لم تكن مملكة القدس تمتلك سوى ميناء واحد هو يافا ؛ أما باقي الساحل الفلسطيني فكان لا يزال باقياً في أيدي حكام مصر ، أو الأمراء التابعين لهم : وكانت تلك نقطة ضعف خطيرة بالنسبة لهذه المستعمرة الصليبية التي لم تكن تقدر على الاتصال بالعالم المسيحي بغير الطريق البحري . هذا ما دعا بودوان الأول بالتالي إلى تركيز غزواته في البداية على الساحل ، بالرغم من الضربات المعاكسة العنيفة المصرية ، التي كسبها بكثير من القوّة (كانتصاره في الرّملة ، 7 أيلول 1101 م) .

واستطاع بذلك أن ينتزع من حكام مصر الموانئ التالية : أرسوف (أوائل نيسان 1101 م) ، وقيساريّة (17 أيار 1101 م) ، وعكّا (26 أيار 1104 م) ، وبيروت (13 أيار 1110 م) . وقد استفاد لهذا الغرض من مصادفة وجود الأساطيل الأوروبية بشكل غير متوقع مسبقاً ، وكانت لهذه الأساطيل أهمية حيوية في تعزيز الحصار البحري للأماكن التي كان يهاجمها من جهة البر .

وكان الأسطول الجنوي هو الذي ساعده في احتلال عكّا ، كما ساعدته الأساطيل الجنوية والبيزية في احتلال بيروت ، وكذلك تمكن من احتلال صيدا بفضل معونة الأسطول النرويجي العائد للملك سيگورد Sigurd والأسطول البندقي العائد للدُّوْدْجه[1] أورديلافو فالير doge Ordelafo Falier . وعند ختام حكم بودوان لم يتبقّ بأيدي المسلمين على الساحل الفلسطيني سوى عسقلان وصور .

أما في شمال مملكة القدس فكان كونت تولوز ، ريمون دى سان جيل ، بعد أن جاس حاملاً معه طموحاته المضطربة في جميع أنحاء المشرق ، قد وقع اختياره في النهاية على الشاطئ اللبناني ، الذي كانت تحكمه تحت وصاية حكام مصر أسرة حاكمة عربية هي «بنو عمّار» أمراء طرابلس . وبالاستعانة بالأسطول الجنوي ، تمكن سان جيل من انتزاع طرطوس من بني عمّار (21 نيسان 1102 م؟) وجُبَيْل ، وهي بيبلوس القديمة Byblos (23 نيسان 1104 م) .

أما طرابلس – المدينة البحرية القديمة ، الميناء حالياً ، التي يصعب احتلالها بسبب موقعها بشكل شبه جزيرة[2] – فقد شرع في محاصرتها بأن أقام في وجهها حصن جبل الحجّاج[3] Mont-Pèlerin (عام 1103 م) ، غير أنه مات دون أن يتمكن من احتلال المدينة (في شباط 1105 م) . وتابع من بعده ابن عمّه گيوم جوردان Guillaume Jourdain (1105–1109 م) محاصرة طرابلس ، وتمكن من احتلال عدة مواقع مجاورة لها ، وبالأخص عرقة .

---

(1) الدُّوْدْجه doge : هو القاضي الأول لجمهورية البندقية .

(2) راجع ص 22 حول حصانة طرابلس وتلقيبها بـ «جبل طارق السّوري» .

(3) قام كونت تولوز ريمون دى سان جيل ببناء هذا الحصن الصغير للحصار ، وعُرف باسم جبل الحجّاج ، وباللاتينية Mons Peregrinus ، وفي أيامنا يعرف بحصن طرابلس ، كما يعرف التل باسم تلّة أبي سمرة .

في سورية الشمالية ، لمّا كان بوهيمون أمير أنطاكية أسيراً في أيدي الأتـراك ، تكفّل ابن أخيه تانكريد بالوصاية على إمارة عمّه (1101–1110 م) . وحالما أُطلق بوهيمـون من أسره ، اشترك مع كونت الرُّها بودوان دى بُور في الحملة علـى الأتراك وغزو الجزيرة باتجاه الموصل ، فبدأا بمحاصرة حرّان ، ولكنهما هُزما سـويّة بالقرب من هذه المدينة على يدي أتابك الموصل التركي الذي انضمّ إليه أمـراء ديار بكر الأراتقة ، وهم من الأتراك أيضاً (في 7 أيار 1104 م) .

وأحدق الأتـراك المنتصـرون بإمـارة أنطاكيـة مـن جهـة الداخـل ، بينمـا كـان البيزنطيون الذين نزلوا في اللاذقية يهاجمونهـا مـن جهـة البحـر ، فبيزنطـة التـي لـم تكـن قـد غفلـت عـن حقوقهـا ، أفـادت مـن الظـروف الراهنـة لتعيـد فتـح «مسـألة أنطاكية» . فمضى بوهيمون ، بكل حدّة وغيـظ ، يسـتقدم النجـدات مـن الغـرب ويهاجم البيزنطيين في عقر دارهم . وبما أن التراجع كان غير ممكن ، فقد اسـترجع تانكريد وصايته على إمارة أنطاكية (1104–1111 م) ، بانتظـار أن يخلـف عمّـه في إمارته عليها ؛ وهـذا مـا حصـل عنـد مـوت بوهيمـون في إيطاليـا ، وصـار تـانكريد بالتالي أميراً لأنطاكية (1111–1112 م) .

قام تانكريد ، الذي كان حازماً كعمّه بوهيمون لكن أقـلّ اندفاعـاً ، بإعـادة تنظيم شؤون إمارة أنطاكية ، وبانتصاره على سلاچقة حلـب في تـيزين (20 نيسـان 1105 م) انتزع منهم الأراضي الواقعة وراء نهر العاصي حتى أبواب حلب (وهي : مقاطعة الأثارب وزَرْدَنا Zerdanâ ومعرّة النعمان وكفر طـاب) ؛ كمـا اسـتطاع أن يغنم من بعض شيوخ العرب بلدة أفامية ، وهو موقع هام في العاصي الأوسط (14 أيلول 1106 م) ؛ وبمساعدة عمارة بحرية پيزيّة استعاد من البيزنطيين ميناء اللاذقيـة (1108 م) . وبحلول عام 1110 م غدا سلاچقة حلب يدفعون له الجزية .

يُعدّ تانكريد[1] لذلك كلّـه المؤسـس الثـاني والمنظّـم الحقيقـي لإمـارة أنطاكيـة اللاتينية . وبما أوتيه من حذق في السياسة ، بقدر ما كان محارباً صنديـداً ، عَـرف كالملك بودوان الأول كيف يكيّف نفسه مع الوسط الشـرقي : فنرى صورتـه على النقد الذي سكّه باسمه معتمراً بالعمامة – عمامة يعلوهـا الصليـب – كُتـب حولهـا بحروف يونانية : «الأمير الكبير تانكريدوس» Tankridos .

---

(1) سمّاه مؤرخونا العرب المعاصرون لتلك الفترة : طنكري .

في خضمّ هذه الغزوات الفرنجية ، بقيت إحدى المدن الإسلامية منيعة صامدة ، تلك هي طرابلس الساحلية «جبل طارق السوري» التي حال دونها – كما رأينا – موقعها الدفاعي بشكل شبة جزيرة ، والتي صمدت للحصار البري الذي ضربه حولها التولوزيّون .

وأخيراً ، في عام 1109 م سنحت لملك القدس بودوان الأول فرصة نزول كونت تولوز عند الساحل ، وهو برتران Bertrand ابن ريمون دى سان جيل ، وتواجد أسطول جنوي على مقربة ، للإجهاز على ما تبقى من مقاومة طرابلس . ولهذه الغاية قام بودوان الأول بلمّ أشتات القوى الفرنجية ، واشترك معه في الحصار ابن عمّه بودوان دى بُور Baudouin de Bourg كونت الرُّها ، وتانكريد الوصي على إمارة أنطاكية ، وبالطبع شارك في الحصار كل من وريثي ريمون دى سان جيل (اللذين كانا متنازعين على تركته في لبنان) ، وهما برتران وگيوم جوردان .

وتم اقتحام طرابلس أخيراً في 12 تموز 1109 م ، وأضحت هذه المدينة عاصمة لـ «كونتيّة طرابلس» le comté de Tripoli ، التي كان أول من حكمها برتران (وكان منافسه گيوم جوردان في غضون ذلك قد تم اغتياله عمداً بتخطيط مسبق) ، وقد دامت هذه الكونتيّة من عام 1109 إلى 1289 م[1] . وبما أن هذه الدولة تميّزت بكونها دولة بحرية ، ويكون الدفاع عنها لهذا السبب بالنسبة للاتين أسياد البحر ، أسهل من غيرها ، فقد أمّنت الاتصال إجمالاً بالقسمين الأوسط والشمالي من الشاطئ اللبناني . وإلى جانب مملكة القدس وإمارة أنطاكية وكونتيّة الرها ، أكملت كونتيّة طرابلس مجموعة ما يُعرف تاريخياً بـ «سورية الفرنجية» la Syrie franque .

ورغم أن الأتراك المسلمين جاءت مجابهتهم للصليبيين واهنة ، فإن مشاعرهم كانت تفور بالغضب لنزول الفرنج في البلاد وارتكازهم فيها ، فما بين عامي 1110–1115 م ، أرسل سلطان إيران السلجوقي إلى سورية ما لا يقلّ عن أربع حملات ، كانت موجهة «ضد الحملات الصليبية» بكل معنى الكلمة ، وسخّرت جميع قواها لإلقاء الفرنجة في البحر .

---

(1) سقطت في 28 نيسان عام 1291 م بيد جيش المماليك بقيادة السّلطان المنصور قلاوون .

وفي عام 1113 م استطاع قائد إحدى هذه الحملات ، وهو مَوْدُود أتابك الموصل ، أن يباغت بودوان وكاد أن يوقع به أسيراً في الصِّنَّبْرَة إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية (في 28 حزيران) [1] ، ولكن الخلاف الذي ما لبث أن دبّ بين مودود ومسلمي سورية أسفر عن نجاة الفرنجة من خطر محقّق (فقد اغتيل مودود في 2 تشرين الأول عام 1113 م في الجامع الأموي بدمشق بإيعاز من طُغْتكين أتابك دمشق) .

وعندما وصل جيش سلجوقي جديد قادماً من إيران عام 1115 م ، وقف حكام سورية الإسلامية منه ، بدءاً من طغتكين ، موقفاً معادياً في صف واحد مع الفرنجة لاشتراكهم بالمصلحة ، وكان هذا الحدث ذا مغزى كبير .

وهكذا نجد أن العنصر الفرنجي كان قد نجح في تكييف نفسه ضمن هذا الوسط ، كما قد تمّ له إقرار جيرانه ضمنياً بوجوده ، فقد بلغ الأمر بالدول التركية المتعرّبة في سورية الداخلية عندما اقتضت المصلحة إلى تفضيل هؤلاء الفرنجة على أبناء دينهم أنفسهم ، أي سلاچقة إيران والعراق . وتحاشياً من الوقوع تحت سيطرة السلطان السلجوقي ، لم يتردّد ولاة حلب وأتابك دمشق التركي في التحالف مع ملك القدس ومع أمير أنطاكية . ولعله لا يوجد أبلغ من هذا المثال كدليل للبرهان على مدى حذق سياسة بودوان الأول تجاه المسلمين .

بفضل هذا التواطؤ مع مسلمي سورية تمكن أمير أنطاكية روجيه دى سالرنو Roger de Salerne الذي خلف تانكريد من كسر شوكة جيش الغزو السلطاني عند تل دانيث شرقي نهر العاصي (في 14 أيلول 1115 م) . وفي جنوب فلسطين ، نجح الملك بودوان الأول في احتلال بلاد مؤاب (شرقي الأردن) ، فضلاً عن وادي موسى ، حيث أقام حصن مونريال Montréal (الشوبك) عام 1115 م .

وفي عام 1116 م ، توغّل جنوباً حتى أيْلَة الواقعة على خليج العقبة المطلّ على البحر الأحمر ، حيث أنشأ موقعاً عسكرياً . وبامتلاكهم لهذه الأراضي الصحراوية ، استطاع الفرنجة شطر العالم الإسلامي إلى قسمين ، وفصلوا أفريقيا عن آسيا الإسلامية ، وتحكّموا بتجارة القوافل ما بين القاهرة من جهة ، وبغداد من جهة أخرى .

---

(1) اشترك في تلك الحملة مودود والسّلطان سَنْجَر وأتابك دمشق طُغتكين .

لم يشكّل الفرنجة كما راينا سوى أُطُر المملكة ، فلإعمار المدن والأرياف (بعد أن هجرها المسلمون بأعداد كبيرة) ، استقدم بودوان الأول من البلدان الواقعة تحت السيطرة الإسلامية ، وبالتحديد من شرقي الأردن وحوران ، كل السكان المسيحيين الأصليين التابعين للطقس اليوناني (الرّوم) أو السّرياني ، والراغبين بامتلاك الأراضي ، وقد بدت هذه الهجرة الاستيطانية ذات كثافة كافية بما يكفل المستقبل الزراعي والاقتصادي للمملكة .

لقد سادت شخصية بودوان الأول الطاغية في عصرها ، وقد كان سياسياً لا يعبأ بالوسائل مهما تبذّلت حينما يجد مصلحة المملكة في خطر ، لكنه كان أيضاً رجل دولة من الطراز الأول ، وفي نفس الوقت محارباً شديد البأس ، ولقد كان بحقّ الباني الحقيقي لدولة سورية الفرنجية . وفي غضون ثمانية عشر عاماً ، جعل من مملكة القدس دولة وطيدة الأركان ، وألحق بفلكها كل ما حولها من الدول الفرنجية الأخرى .

لا شك أن إمارة أنطاكية كانت مستقلّة نظرياً عن المملكة ، ولكن عملياً كان أمراء أنطاكية ، مثلهم في ذلك كمثل كونتات الرها أو طرابلس ، يعترفون بسيادة الملك ، كما كانوا في حروبهم مع المسلمين يتّبعون توجيهاته عموماً . وفي هذا الصَّدد ، فضلاً عن غيره من الأمور الأخرى ، استطاع بودوان الأول سنّ عُرف ظل سائداً حتى عام 1187 م .

تملّك بودوان الثاني

خلف بودوان الأول في منصبه ، كملك للقدس ، ابن عمّه بودوان دى بور[1] Baudouin de Bourg – أي الملك بودوان الثاني – الذي كان حتى ذلك الحين يشغل منصب كونت الرُّها ، وقد خلفه في حكم الرُّها بارون من النخبة الممتازة ، هو جوسلان الأول دى كورتنيه Jocelin I^er de Courtenay .

---

(1) كذا يُلفظ اسم Bourg بالفرنسية ، وليس بورغ أو بورج ، كما اعتاد كتابته مؤرخونا ، الذين ما برحوا يعتقدون أن الإنكليزية هي أم اللغات طرّاً . وما فتئ مؤرخونا وكتّاب الدراما التاريخية في التلفزيونات العربية يطرقون أسماعنا باسم «بلدوين» أو «بالدوين» لملوك القدس الفرنجة ، بدلاً من «بودوان» .

كان بودوان الثاني حاكماً نزيهاً ورعاً نشيطاً وحاذقاً كل الحذق ، وكان هو الآخر قد تكيّف مع الوسط الشرقي ، فحذا حذو سلفه بالزواج من أرمنية . وقُيّض له أثناء فترة حكمه (1118–1131 م) أن يواجه سلسلة من المصاعب المريرة ويتخطّاها ، وأول ما جرى من ذلك هزيمة الأتراك لأمير أنطاكية روجيه دى سالرنو[1] (1112–1119 م) ومقتله عند تل باشر ما بين أنطاكية وحلب ، على يدي زعيم ديار بكر التركي إيلغازي[2] الأرتُقي (في 28 حزيران 1119 م) .

فخفّ بودوان مسرعاً من القدس ، وجابه الأتراك وأنقذ إمارة أنطاكية التي تكفّل بالوصاية عليها . ثم تفاقمت الأمور عندما وقع الملك أسيراً في أيدي الأمير الأرتقي بلك (في 18 نيسان 1123 م) وأُودع في حصن خربوط في ديار بكر ، حيث حاول الفرار لكن دون جدوى . وبالرغم من ذلك ، فقد بقيت السيطرة الفرنجية راسخة البنيان ، ولم تتزعزع بفعل حادثة أسر الملك ، بل على العكس من ذلك ، فأثناء فترة أسر بودوان الثاني ، انتهز الوصي على المملكة ، گيّوم دى بور[3] Guillaume de Bures ، سيد طبريّة ، فرصة تواجد أسطول بندقي بقيادة الدُّوْدْجِه دومينيگو ميگييل doge Domenico Michiel ، لينتزع من المصريين ميناء صُور ، وكان ذلك مكسباً كبيراً ، أدّى إلى تعزيز السيادة المسيحية على البحر (في 7 تموز 1124 م) .

وعندما خرج بودوان الثاني من الأسر ، استأنف صراعه مع الأتراك كوصي لأنطاكية . وفي نهاية عام 1124 م أوشك بفضل تواطئه مع بعض البدو على الإيقاع بمدينة حلب[4] ، ولكن تم إنقاذ المدينة على يدي قائد تركي مفعم بالعزم ، هو آق سُنْقُر البُرْسُقي ، أتابك الموصل ، الذي ضمّ حلب على الأثر إلى ما بيده (عام 1125 م) . واستطاع بودوان رغم ذلك الوقوف في وجه التحالف القائم بين البُرسقي وأتابك دمشق طُغْتكين (معركة عزاز في 11–13 حزيران 1125 م) . أما الأمل باحتلال حلب فقد تلاشى نهائياً .

---

(1) سمّاه مؤرخونا العرب المعاصرون لتلك الفترة : سرجال .

(2) الاسم بالتركية : İl-Gazi ، ويعني الزعيم الغازي .

(3) يسميه مؤرخونا العرب المعاصرون لتلك الفترة ، كابن القلانسي : كليام دبور .

(4) سننشر حول ذلك دراسة لنا : ثلاثة فصول تاريخية من جهاد حلب في القرون الوسطى : صمود حلب في وجه الصليبيين عام 518 هـ ، مغامرة المملوك الأشرفي الصّارم أوزبك في الغزو التّتري لبلاد الشام عام 656 هـ ؛ تيمورلنك على أبواب حلب عام 803 هـ .

ولذلك ، وجّه بودوان الثاني قواه ضد دمشق التي لم يكن غزوها بأقل أهمية من غزو حلب ، لصالح الضرورات الأمنية لدولة سورية الفرنجية . وقاد عبر حوران حملة ظافرة ، حتى وصل إلى المشارف الجنوبية لمدينة دمشق حيث هزم الأتابك طغتكين في شَقْحَب (25 كانون الثاني 1126 م) ، ولكن دون أن يتمكن من النفاذ إلى المدينة الكبرى .

وحيث لم يُجد السلاح في إحراز النصر لجأ بودوان إلى استعمال الخديعة ، فأجرى اتصالات سريّة مع من بدمشق من أتباع المذهب الإسلامي الإسماعيلي ، وهم الإسماعيلية (أو الحشيشية) الذين دفعهم غلواؤهم ضد المذهب الرسمي والسلطات الحاكمة إلى التدبير لتسليم مدينة دمشق إلى الصليبيين ، وكادوا ينجحون في ذلك . على أن هذه المؤامرة تم اكتشافها وباءت آمال بودوان الثاني بالخيبة (أيلول 1129 م)[1] ، وكان عليه الاكتفاء باغتنام موقع بانياس الحدودي الواقع شمال شرق الجليل الأعلى والذي سلّمه له الإسماعيلية .

وهكذا ، ورغم كفاءة بودوان الثاني ، بقيت سورية الداخلية – حلب ودمشق – في أيدي المسلمين . ولهذا السبب ما برح استيطان الفرنجة في الساحل السوري مهدداً دوماً بالخطر ، بيد أن هذا الخطر مع ذلك كان يبدو غير ماحق ، طوال استمرار التشتّت الإسلامي على حاله .

وفجأة ، إذا بحلب تنتقل عام 1128 م إلى يدي شخصية إسلامية قوية ، وذلك هو القائد التركي زنكي ، أتابك الموصل . كان الهدف الأول الذي وضعه زنكي نصب عينيه ، ومن بعده ابنه نور الدين (1146–1174 م) هو تحقيق الوحدة السياسية السورية الإسلامية لصالحهما ، متيقنين من أن هذه الوحدة ما إن يتم تحقيقها ، حتى يغدو في مقدورهم إلقاء الفرنجة في البحر .

وعلى الجهة المعاكسة ، تركّزت كل الجهود السياسية لملوك القدس اللاتين (لإدراكهم مدى عظم الخطر الذي يتربّص بهم) على الوقوف في وجه هذه الوحدة ، وذلك بتكريس تفكك القوى الإسلامية عن طريق مناصرة الدويلات السورية الإسلامية الصغرى وتحريضها ضد المطامع التوسّعية للدولة الزنكية .

---

(1) فات المؤلف هنا أن يذكر الهزيمة النكراء التي مني بها بودوان الثاني على يدي أتابك دمشق تاج الملوك بورى بن محمد بن طغتكين سنة 523 هـ . راجع ابن القلانسي ، 225 .

تملّك فولك دانجو

بعد بودوان الثاني ، انتقل عرش القدس إلى صهره فولك دانجو[1] Foulque d'Anjou (1131–1143 م) .

على الصعيد الداخلي قام الملك فولك بتوطيد دعائم الهيمنة الملكية ، وذلك بكبح المواقف العدائية للوصيّة على إمارة أنطاكية أليكس Alix ، وكذلك پونس Pons كونت طرابلس ، ثم قام بتزويج الأميرة الشابة وليّة عهد أنطاكية من خاطب قام هو شخصياً بانتقائه لها ، وذاك هو ريمون دى پواتييه Raymond de Poitiers (عام 1136 م) .

أما على الصعيد الخارجي ، فكما رأينا وجدت الدول الفرنجية التي كان تقدّمها عائداً إلى ما صادفته من تسهيلات مردّها التفكك السياسي للإسلام ، وجدت نفسها في الوقت الحاضر تخضع لوضع جديد ، منذ أن خَطَت سورية الإسلامية في درب تحقيق وحدتها الشاملة ، بقيادة الأتابك القوي الحازم زنگي صاحب حلب والموصل ، والذي أضاف إليهما مؤخراً (عام 1130 م) مدينة حماة . وإذا بالملكية الفرنجية ، التي كانت حتى ذلك الحين تتمتع بتفوق واضح إزاء الملكية الإسلامية ، تواجهها الآن في سورية قيادة إسلامية صلبة الإهاب ، قادرة على دحر الفرنجة ، فها هو زنگي في عام 1135 م ينتزع من إمارة أنطاكية عدّة بقاع من المنطقة الواقعة ما وراء نهر العاصي .

وفضلاً عن ذلك ، بدأ البيزنطيون ، الذين تناسى الفرنجة ما لهم من حقوق عند تأسيس إمارة أنطاكية ، بحشد قواهم مجدداً على الحدود السورية ، وأعادوا من جديد طرح قضية أنطاكية برمّتها ، وذاك ما كان يعتقد كلّ من بوهيمون وتانكريد أنهما قد حسماه نهائياً بالنسبة للبيزنطيين .

وفي عام 1137 م ، طرأ كل من التهديد البيزنطي والخطر الإسلامي في آن واحد ، فقد أسر زنگي في حصن بارين (مونفيرّان) Montferrand كلاً من الملك فولك وكونت طرابلس ريمون الثاني (10–20 آب) . وفي الحين نفسه ، هبط الإمبراطور البيزنطي جان كومنينوس Jean Comnène عن طريق كيليكيا باتجاه أنطاكية وجهدها بالحصار (29 آب) ، مما اضطر ريمون دى پواتييه إلى الإقرار

---

(1) نسبة إلى إقليم آنجو Anjou في شمال فرنسا ، الذي ينتمي فولك إلى أسرته الحاكمة .

بتبعيته للإمبراطور . ولحسن طالع الفرنجة ، توازن هذان الخطران فيما بينهما ودفع كل منهما للآخر ، فإن وجود الجيش البيزنطي الجرّار على مقربة ، وإمكانية التقائه بالمصلحة مع الفرنجة ، قد أثار الوساوس في نفس زنكي ، فما لبث أن أطلق فولك وكونت طرابلس دون أية فدية .

والذي جرى فعلاً ، أن الامبراطور البيزنطي جان كومنينوس لما شعر بالرضا بعودة سيادته المطلقة على أنطاكية ، لم يتوانَ عن مؤازرة ريمون دى پواتييه في استرجاع عدة بقاع من زنكي ما بين مدينتي أنطاكية وحلب[1] ، ومضى بعد ذلك بصحبة ريمون يحاصران مدينة شيزر العربية ، في منطقة العاصي الأوسط (نيسان 1138 م) . ولكن هذا الحصار أخفق مع ذلك ، بسبب انعدام الائتلاف ما بين الفرنجة والبيزنطيين ، وقد أراد جان كومنينوس المستاء من الوضع إرساء قواعد سلطته في أنطاكية ، ولكنه حيال مقاومة العنصر اللاتيني له عدل عن مشروعه هذا ، ولم يسعه إلا الجلاء عن المدينة والإمارة .

لا شك أن الردّة الإسلامية التي أخذت تتعاظم شيئاً فشيئاً ، مُنذرة بأخطار كبرى ، قد واجهها في الطرف الآخر التحالف الفرنجي البيزنطي ، ولكن لسوء الحظ ، عندما كان أرباب هذا التحالف يسلّمون بالمبادئ المتفق عليها ، كان سوء الظن التقليدي المتوارث ما بين اليونان واللاتين يؤدي دائماً إلى إحباط تطبيقها على مضمار الواقع .

بعد رحيل البيزنطيين ، باشر زنكي في محاولة ضمّ المملكة الإسلامية السورية الأخرى إلى مملكته ، وتلك هي مملكة دمشق (عام 1139 م) ، وكان نجاحه في ذلك الضمّ يعني بروز الوحدة الإسلامية العتيدة إلى حيّز الوجود .

أما الملك فولك فقد جعل من نفسه ، لغاية سياسية محددة ، المدافع عن استقلال دمشق ، وقد أبرم مع القائم على دمشق معين الدين أُنَر حلفاً متيناً ، زاد من توثيقه ما قام به الأمير أسامة بن مُنقذ من سفارات بين الطرفين ، وقد ترك لنا هذا الأمير مذكراته التي دوّنها بنفسه[2] .

---

(1) راجع تفاصيل ذلك في تاريخ ابن القلانسي ، حوادث سنة 531 هـ ، ص 259 .

(2) هي «كتاب الاعتبار» الذي يضم السيرة الشخصية للأمير أسامة وأخباره في الصيد والجهاد ضد الصليبيين ، مع نوادر عديدة شيقة . ويعتبر هذا الكتاب الرائع تحفة نادرة في تراثنا العربي ، وفي نيّتنا أن نقوم بإعداد نشرة جديدة له في فترة غير بعيدة إن شاء الله .

أمام هذا التحالف الفرنجي - الدمشقي ، ألفى زنكي نفسه مضطراً لإرجاء محاولاته لأخذ المدينة ، ففي الرابع من أيار 1140 م رفع حصاره عن دمشق ، أما أُنَر فقد أثبت حسن نواياه للفرنجة بأن ساعدهم في استرجاع حصن بانياس الحدودي في الجليل الأعلى من أيدي حاميته الزنكية .

لقد كانت سياسة الملك فولك ، وهي سياسة محافظة كرّست إبقاء الأوضاع على حالتها الراهنة درءاً للردّة الإسلامية ، ناجحة بالفعل وتدل على نفاذ بصيرة . وقد انطوت هذه السياسة ، من جهة ، على التقارب الواضح مع بيزنطة ، ومن جهة أخرى على سياسة متفهّمة تجاه الإسلام ، تمّ توثيقها بإبرام الحلف مع دمشق .

وتُبرز لنا سيرة أُسامة الذاتية مقدار المودّة التي قامت تبعاً لذلك ما بين البارونات الفرنجة والأمراء الدمشقيين ، مع ميل الطرفين إلى التسامح الديني بشكل يعتبر جدّ متقدم بالنسبة لذلك العصر (كصداقة أسامة مع فرسان الهيكل «الدّاويّة» Templiers) .

سقوط الرُّها والحملة الصليبية الثانية

عند موت الملك فولك (حوالي 10 تشرين الثاني 1143 م) ، انتقل التاج إلى ابنه بودوان الثالث Baudouin III ، ولكن بما أن بودوان الصغير كان قاصراً ، فقد تولّت أمّه ميليساند Mélisende شؤون الوصاية على الحكم (1143-1152 م) ، وانتهز زنكي فرصة هذا القصور ، فانقضّ على الرُّها عاصمة الكونتيّة المسماة باسمها ، وانتزعها من أيدي الفرنجة (في 23 كانون الأول 1144 م) .

وبوفاة زنكي بعد فترة قصيرة ، نجح كونت الرُّها السابق جوسلان الثاني Jocelin II ، بالتعاون مع أرمن الرُّها ، في أخذ هذه المدينة من جديد (27 تشرين الأول 1146 م) ؛ ولكن ابن زنكي ، نور الدين ، الذي حلّ خلفاً لوالده في أتابكية حلب ، هرع إلى الرُّها على رأس قوات متفوّقة ، وافتتح المدينة عَنْوة بشكل حاسم ونهائي (في 3 تشرين الثاني 1146 م) . ولو أن جوسلان الثاني تمكّن من الإفلات ، لكان الأتراك أجبروا سكان المدينة من الأرمن على دفع ثمن ولائهم الراسخ للفرنجة غالياً .

وتم تحويل هذا القسم من الرُّها (أورفة الحالية) ، التي كانت تحت الحكم الفرنجي مستوطنة أرمنية بغالبيتها ، إلى مستوطنة تركية ، وقد تم إجلاء السكان الأرمن عنها بالمجازر أو التهجير من جديد . ومن جهة أخرى ، انتزع نور الدين من أمير أنطاكية ريمون دى پواتييه موقع أرتاح Artésie (عام 1147 م) .

ومن أصل أربع دول فرنجية قامت في المشرق لم يعد يتبقى سوى ثلاث ، وأسفرت هذه الصحوة الإسلامية عن إقصاء الفرنجة إلى أطراف الجزيرة ، باتجاه سورية نفسها ؛ وحتى في سورية ، تم دحر إمارة أنطاكية شيئاً فشيئاً إلى غربي نهر العاصي . وهكذا نرى بالتالي أن الشرق اللاتيني أمسى مندحراً على جميع الساحات .

هذه المستجدات أدّت في أوروبا إلى الدفع نحو إعلان حملة صليبية ثانية ، قام بإعلانها تحديداً القديس برنار Saint Bernard (في اجتماع ڤيزليه Vézelay ، آذار 1146 م) . وحلّ كل من الإمبراطور الجرماني كونراد الثالث Konrad III وملك فرنسا لويس السابع Louis VII في صدارة هذه الحركة ، بينما كانت الحملة الأولى قد قامت على عواتق البارونات . وسلك كونراد الثالث ولويس السابع ، كلٌ منهما بمفرده ، الطريق المعتادة خلال هنگاريا والإمبراطورية البيزنطية ، ووصلا ، كلٌ على حدة أيضاً ، إلى القسطنطينية في أيلول وتشرين الأول عام 1147 م . وقد ساءت صلاتهما إلى حدّ بالغ مع البيزنطيين .

ولدى اجتياز الأول – كونراد الثالث – لآسيا الصغرى ، صدّ مسيرته الأتراك السلاچقة في منطقة دوريليوم (إسكي شهر Eskişehir حالياً) ، فتعرّضت قوّاته لخسائر فادحة ، ثم تراجعوا تحت ضربات الأتراك إلى نيقية Nicée . أما لويس السابع فقد سلك طريق الساحل الأناضولي ، لكنه وجد نفسه محاصراً بالأتراك عند ممرات پيسيديا Pisidie ، وفقد هو الآخر أعداداً كبيرة من قوّاته (كانون الثاني 1148 م) . ومع ذلك بلغ مرفأ ساتاليا Sattalie (أضاليا حالياً) ، حيث أبحر مصطحباً فرسانه باتجاه أنطاكية ، دون أن يتمكن من اصطحاب قوّات مشاته معه ، الذين وقعوا بدورهم طُعمة لسيوف الأتراك الذين حصدوهم على بَكرة أبيهم (شباط 1148 م)[1] .

---

(1) راجع تفاصيل ذلك في ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي وكتاب الرّوضتين لأبي شامة .

رغب أمير أنطاكية ريمون دى پواتييه ، وكان على حق في ذلك ، بـأن يوجّه لويس السابع هجومه نحو نور الدين ، أتابك حلـب ، الـذي كـان بالحقيقـة العـدو الأكبر للفرنجة[1] . ولكن لويس السابع ، الذي اشتدّت به نار الغيرة من المودّة التي قامت ما بين زوجته أليينور داكيتين Aliénor d'Aquitaine وريمون ، رفض الأمـر بعناد وإصرار ، وتوجّه إلى القدس حيث التقى بكونراد الثالث . ثم مضـى هـذان الملكان بعد ذلك لمحاصرة دمشق ، وهذه المدينة – كما رأينا – كانت عاصمـة مملكـة إسلامية ثانوية ، وكانت حتى زمن قريب حليفة للفرنجة ضد زنكي .

هذه الزّلّة السياسية تفاقمت عند دمشق باتخاذ استراتيجيات حربية رعنـاء ؛ وفي الختـام ، أدت الخلافـات التـي اشـتجرت مـا بـين بارونـات سـورية المحليـين والوافدين الصليبيين الجدد إلـى التخلي عـن المشـروع ورفـع الحصـار الفاشـل عـن مدينة دمشق (28 تموز 1148 م) .

وانتهـت الحملـة الصليبيـة ، التـي تولّـت توجيههـا سياسـات خرقـاء ، إلـى الإخفاق التام . وما أن رحل الصليبيون حتى قام أتابك حلب نور الدين بالإغـارة على إنّب ، وقتل ريمون دى پواتييه بها (في 29 حزيران 1149 م) ، كمـا اجتـثّ مـن إمارة أنطاكية كل ما اتصل بها من أراض ما وراء نهر العـاصي ، بمـا في ذلـك حـارم وأفامية . أما كونتيّة الرُّها فقد ضـاعت نهائيـاً . وأمـا إمـارة أنطاكيـة فقـد أصيبـت بشرخ خطير في منتصفها .

تملّك بودوان الثالث

في عام 1152 م ، اختتمت وصايـة ميليسـاند Mélisende علـى ابنهـا الملـك بودوان الثالث ، الذي باشر سلطته منذ ذاك . لقد كان ذلك الحاكم الشاب – وهو أول ملك فرنجي يولد في الأرض المقدّسة – زعيماً محارباً جريئاً ودبلوماسياً حاذقاً استخلص من المصريين (الفاطميين) عسقلان ، وهو آخر موقع على الساحل تبقى بأيديهم (في 19 آب 1153 م) . لكنه لم يكُ بقادر على ردع أتابك حلب نور الدين عن ضمّ المملكة الإسلامية الأخرى – أي دمشق – إلى مملكته (1154 م) .

---

(1) وكان الصليبيون يلقّبون نور الدين : Nouradin le redoutable ، أي نور الدين الرهيـب ، فلقد لقوا منه ومن قوّاته التباريح في حملاته المتتابعة بأنحاء الشام وكيليكيا .

تمّ بذلك تحقيق الوحدة الإسلامية الشاملة ، التي شكّلت خطراً عظيماً على دول سورية الفرنجية . غير أن بودوان الثالث لم يتوان عن تسبيب المتاعب لنور الدين من جميع الجهات . وفي عام 1158 م مدّ بارونات أنطاكية بالعون لاسترجاع حارم إلى إمارتهم ، ثم هزم الأتابك عند البُطَيْحة شمال شرقي بحيرة طبرية .

وفي أنطاكية ، كانت الأميرة كونستانس Constance ، أرملة ريمون دى پواتييه ، قد تزوّجت عام 1153 م من مغامر خطير لامع هو رُنُو دى شاتيّون Renaud de Châtillon . ومضى رُنو على حين غرّة يغير على جزيرة قبرص البيزنطية ، وهو عمل قرصنة يرتكب في حالة الصلح على أرض مسيحية .

بينما كان بودوان الثالث في الحين ذاته ، حيال الخطر الذي أفرزته وحدة سورية الإسلامية ، ينتهج سياسة التقارب مع الإمبراطورية البيزنطية ، وتعزّزت هذه السياسة بزواجه من الأميرة البيزنطية تيودورا كومنينا Théodora Comnène (عام 1158 م) . وتلا ذلك بقليل قدوم الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس باتجاه الحدود السورية – الكيليكية ليقتصّ من رُنو دى شاتيّون لانتهاكه لقبرص . فما كان من رُنو إلا أن ترامى على قدمي الإمبراطور مسترحماً ، ولم يتردّد هذا الأخير في إعادة طرح «قضيّة أنطاكية» التقليدية من جديد ، وانتهز الأوضاع الراهنة ليدخل المدينة دخول الفاتحين بكل عظمة كعاهل لها (نيسان 1159 م) .

توجّه بودوان الثالث كذلك إلى أنطاكية ، إنما لكي يعقد التحالف بينه وبين مانويل . وكان يلوح في هذا الإجراء الأمل في أن شتات القوى الفرنجية والبيزنطية التي توحّدت على هذا الشكل سوف تُقدم على مهاجمة نور الدين بحلب نفسها ، لكن الذي جرى أن مانويل كومنين غادر سورية دون المضي في هذا المشروع .

تملّك أموري الأول

تلا بودوان الثالث في الحكم أخوه أموري[1] Amaury (1162–1174 م) . ووجّه أموري ذو الشخصية القوية الحركة الصليبية باتجاه سُبُل جديدة ، وذلك بفتح الباب لمحاولة احتلال مصر .

---

(1) من الواضح أن اسم Amaury بالفرنسية لا وجه لقراءته ولفظه إلا بشكل «أموري» ، فلسنا ندري من أين أتاه بعض الكتّاب في مصر باسم «عموري» !

في مصر كانت السلالة العربية الفاطمية الحاكمة تمر في حالة انهيار تام . وكان سيّد سورية الإسلامية الأتابك نور الدين يتحيّن الفرصة ليخلفهم في حكم مصر ، وإذا بالوزير المصري شاوَرْ يستحثّه للقيام بالتدخل ، لما كان يعانيه من تضييق إحدى الفئات المنافسة له في مصر . فأوفد الأتابك إلى مصر قائده شيركوه[1] ، الذي عضد الوزير في استعادة سلطته ، لكنه في الوقت نفسه هيّأ الأمور لنفسه كيما يشاركه في حكم مصر .

وليتخلّص من هذه الوصاية ، قام شاور بالاستنجاد بأموري . وهكذا دخل ملك القدس مصر ، وقام بالاشتراك مع المصريين بمحاصرة شيركوه في بلبيس . ثم تم التوصل إلى اتفاق بين الطرفين ، وذلك بأن يغادر كل من شيركوه وأموري مصر في آن واحد ، وهذا ما حصل (1164 م) .

وفي عام 1167 م ، أرسل نور الدين شيركوه من جديد على رأس جيش من قوّاته ، ولكن هذه المرة ليفتتح مصر علناً من أيدي الفاطميين . ولجأت الحكومة الفاطمية من جديد إلى الاستغاثة بأموري . وخفّ أموري إلى مصر متعقّباً شيركوه ، فاستقبله الفاطميون كمنقذ لهم . وتواقع شيركوه وأموري في معركة غير حاسمة في البابين في أعالي مصّر (18 آذار 1167 م) ، ثم مضى شيركوه يعتصم في الإسكندرية ، فتبعه أموري والجيش المصري وحاصراه ، ثم أجبراه على مغادرة البلاد (آب 1167 م) .

ولكي تثبت الحكومة المصرية ولاءها المطلق لأموري ، فقد رضخت ضمنياً بالانطواء تحت الحماية الفرنجية (بما في ذلك دفع الجزية ، وإنزال حامية فرنجية في القاهرة) . كان ذلك بالنسبة لأموري نجاحاً باهراً ، ولكن لسوء الحظ قرّر لعدم اكتفائه بمجرد بسط حمايته على مصر أن يقوم بغزوها مباشرة . كان ذلك التهوّر القاتل كفيلاً بإحباط نتائج جميع جهوده المضنية السابقة دفعة واحدة . وأمام هجومه على المصريين ، لم يجد هؤلاء من ملاذ لهم سوى الارتماء بين ذراعي نور الدين . فلم يكن منه إلا أن بادر على الفور بإرسال قائده شيركوه مجدداً من سورية إلى مصر ، واستطاع هذا الأخير إجبار أموري على رفع قبضته عن البلاد (في تشرين الثاني وكانون الأول 1168 م) .

---

(1) شيركوه اسم كردي يعني : أسد الجبل .

توفي شيركوه في قمّة انتصاراته (1169 م) ، ولكن ابن أخيه صلاح الدين[1] الذي خلفه في قيادة جيشه ثبّت أقدامه في مصر كحاكم مُطلق بجانب الخليفة الفاطمي ، ثم في عام (1171 م) لم يتوانَ عن تنحية الفاطميين جانباً ، وانفرد بحكم مصر بشكل مباشر .

بهذه الخطوة الكبرى تمّ ردم الهوّة الدينية العميقة ، التي كانت تفصل منذ قرنين كاملين مسلمي مصر عن مسلمي سورية ، وكان لهذه الهوّة في الواقع أثرها الكبير في نجاح الحملات الصليبية . ولم تعد سورية الإسلامية وحدها هي التي تمّ توحيدها تحت قيادة الزعيم القوي نور الدين وحسب ، بل هاهي الآن مصر برمّتها تنتقل إلى سيادة الأتابك الذي لا يُقهر ، وتبقى في يد قائده . وبذلك أمست دولة سورية الفرنجية مطوّقة من ثلاث جهات .

أما الملك أموري ، فبما أدركه من عظم الأخطار التي باتت تهدّده ، ما كان منه إلا أن لجأ مجدّداً إلى الحل الوحيد الممكن أمامه ، وهو إعادة توثيق الحلف مع الإمبراطورية البيزنطة . وكان هو الآخر قد تزوّج من أميرة بيزنطية هي ماريا كومنينا Marie Comnène . وتحرّكت فرقة عسكرية بيزنطية لمساعدته في هجومه على ميناء دمياط المصري ، ولكن هذا الحصار كان مصيره الفشل (من تشرين الأول إلى كانون الأول 1169 م) .

كان ذلك ما دعا أموري إلى التوجه فوراً إلى القسطنطينية ، حيث أجرى الإمبراطور مانويل كومنينوس استقبالاً حافلاً ، ثم تداول الرجلان في سبيل التوصل إلى سياسة مشتركة ضد نور الدين وصلاح الدين (من شهر آذار إلى حزيران 1171 م) . ولكن أموري مات عام (1174 م) قبل أن يُتاح له المضي في تطبيق المنهاج المقرّر مع البيزنطيين .

---

(1) يسميه الفرنسيون : Saladin ، والسُّلطان النَّاصر (532–589 هـ) صلاح الدِّين يوسف ابن أيّوب بن شاذي أحد أعظم ملوك الإسلام ومن أهمّ الشخصيات التاريخية التي أنجبتها أمتنا الإسلامية . ولي مصر تحت قيادة السّلطان الأتابكي العادل نور الدّين محمود ابن زنكي ، ثم بوفاته عام 569 هـ أسّس النّاصر دولة آل أيوب التي دامت نيّفاً وثمانين عاماً . أهم أعماله كانت مجاهدة الصليبيين بالشام 18 عاماً دون توقف حتى كسرهم في حطّين 583 هـ وحرّر القدس الشريف بعد أن بقي بيد الصليبيين 90 عاماً (منذ عام 492 هـ) ، ثم عقد صلح الرّملة بينه وبين الملك ريتشارد قائد الحملة الصليبية الثالثة عام 588 هـ ، فتمّ له ترسيخ انتصاراته العسكرية برغم فقده لعكّا قبل ذلك بعام . توفي بدمشق ودُفن فيها .

تملّك بودوان الرابع

خلف أموري في الحكم ابنه بودوان الرابع Baudouin IV ، الذي كان شاباً ذا مزايا عالية ولكنه للأسف أصيب بالجُذام . أما نور الدين فقد توفي في نفس الوقت تقريباً، دون أن يخلّف من بعده سوى صبي قاصر[1] . فما كان من صلاح الدين إلا أن قام بانتزاع الولايات من هذا الصبي ، دمشق أولاً (1174 م) ، ثم حلب (1183 م) .

من خلال هذه المجريات ، ترتّب ما يعود بأكبر الوبال على الفرنجة ، فما أن توحّدت سورية الإسلامية ومصر تحت قيادة رجل عظيم كصلاح الدين - الذي يُعتبر لذلك واحداً من أعظم الرجال في تاريخ آسيا - حتى وجدت الدول الفرنجية نفسها ليست مطوّقة فحسب ، بل وفي حالة من الضعف الدائم . لقد كان تفوّق هذه الدول من قبل ، كما بيّنا سابقاً ، عائداً بدرجة كبيرة إلى تشتّت العالم الإسلامي ، ولكن منذ اليوم الذي أضحى فيه العالم الإسلامي موحّداً سياسياً ، من مساقط النيل إلى الفرات ، غدت أيام الشرق اللاتيني معدودة ومحكومة بالفناء .

لكن ينبغي الإقرار بأن بودوان الرابع الشاب ، ومستشاره النابه ريمون الثالث كونت طرابلس ، قد بذلا كل ما في وسعهما لإعاقة الوحدة الإسلامية ، وعمدا إلى تطبيق سياسة ملوك القدس السالفين ، في حماية الدول الإسلامية الضعيفة ضد الدول الكبرى المسيطرة عليها ، فعملا ما استطاعا على الدفاع عن ابن نور الدين ضد صلاح الدين ، كما فعل بالأمس القريب الملك بودوان الثالث فدافع عن استقلال مملكة دمشق في وجه نور الدين . ولكنهما ، أي بودوان وريمون ، لم تثمر جهودهما أكثر من تأخير إنجاز هذه الوحدة الإسلامية الشاملة لبضعة سنين أخرى ، ليس إلا .

---

(1) هو الصالح اسماعيل ، الذي كان فتى غرّاً غير أهل للحكم . وحول تولي الناصر صلاح الدين مكانه راجع كتاب : «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لبهاء الدين ابن شدّاد (بتحقيقنا) ، فصل : ذكر وفاة نور الدين محمود بن زنكي ، وفيه شهادة هامة لصلاح الدين عن رفضه عصيان سيده نور الدين ، تُسجّل له بكل فخر وتدحض مزاعم الباحثين عن مثالب العظماء ممن قالوا بأن صلاح الدين قد قلب لولي نعمته ظهر المجن . وكان تولي صلاح الدين لمقاليد السلطة نابعاً من ضرورة حتمية لصدّ هجمات الغزاة الصليبيين بغضّ النظر عن الاعتبارات السياسية الأخرى .

ورغم مرضه العُضال ، ساهم بودوان الرابع شخصياً بدور فعّال في الصراع ضد صلاح الدين ، حتى أنه أحرز عليه بين تل الجزر (مونجيزار Montgisard) وتل الصّافية (بلانش گارد Blanche-Garde) واحداً من أزهى انتصارات الصليبيين (25 تشرين الثاني 1177 م) . وتوصّل بُعيد ذلك إلى إجراء هدنة معه (عام 1180 م) ، أفادت بشكل خاص في إراحة الصليبيين المنهكي القوى . لكن لسوء الحظ خُرِقت هذه الهدنة بسوء تصرف أمير أنطاكية السابق الأرعن رُنو دى شاتيّون ، الذي أصبح منذ فترة غير بعيدة سيد الأراضي الواقعة ما وراء نهر الأردن ، أي : شرقي الأردن Transjordanie ، ووادي موسى .

وتم الاستفادة من حصون رُنو في المنطقة المذكورة ، وهي قلعة الكَرَك (قلعة مؤاب Crac de Moab) ، وحصن الشَّوبَك (مونريال Montréal) ، في التحكّم بالطريق الواصل بين سورية الإسلامية ومصر ، فقُطعت بذلك إمبراطورية صلاح الدين إلى شطرين . كما استغلّ رُنو ذلك للإغارة على قافلة الحج المتوجهة إلى مكة واستلابها (1181 م) ، فأدّى هذا العمل اللصوصي الوقح إلى تأجيج أشدّ معاني السخط البالغ في ضمائر الأمة الإسلامية .

وسرعان ما استأنف صلاح الدين حربه مع الفرنجة ، وألهب رُنو مشاعر الأمة الإسلامية من جديد ، عندما دفع نحو البحر الأحمر بأسطول مضى يتهدّد مدن الإسلام المقدّسة : مكة والمدينة (شتاء 1182–1183 م) ، وهذا يُعتبر انتهاكاً ما بعده انتهاك لأقدس حُرُمات المسلمين[1] .

استشاط صلاح الدين غضباً وأقبل يحاصر قلعة الكرك ، التي لم يُنجها من سطوته سوى التدخل البطولي[2] لبودوان الرابع (4 كانون الأول 1183 م) .

---

(1) كان مصير هذا الخائن بعد أربعة أعوام عقب معركة حطّين أن ضرب السّلطان النّاصر عنقه بيده ، وفاءً لنذر له قطعه على نفسه بذلك منذ أن بلغته أخبار غدره بالحجّاج وتهديده للحرمين . ويروي بهاء الدّين ابن شدّاد في كتابه الرّائع «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» تفاصيل اللّقاء النّادر بين السّلطان وأسيريه ملك القدس ورُنو .

(2) هذا كلام الكاتب الفرنسي ، الذي يشيد ببطولات قومه ، وهذا لعمري حق كل إنسان ، وإن كان – كما نرى – لا ينكر أبداً إنجازات أبطال تاريخنا الإسلامي ، ولهجته في كتابه هذا هي أقرب إلى الواقعية والإنصاف ، فحيّا الله من عرف حقه وحق غيره . وكنا ذكرنا في المقدمة أن هذا كان سبباً رئيسياً لاختيارنا هذا الكتاب لنقله إلى لغة الضاد ، فليست كل كتب المستعربين تتصف بهذا الإنصاف والموضوعية .

گي دى لوزينيان وكارثة حطين

مات الملك بودوان الرابع ذو المآثر البطولية ، وقد أضناه الجُذام (في 15 آذار 1185 م) . وأُعلن من بعده ملكاً ابن أخيه بودوان الخامس Baudouin V ، وهو طفل في الخامسة من العمر . ولدى وفاة هذا الطفل بدوره (في أيلول 1186 م) انتقل التاج إلى أخت بودوان الرابع ، الملكة سيبيل Sibylle التي ، برغم معارضة البارونات ، أشركت في العرش زوجها گي دى لوزينيان Guy de Lusignan ، وكان غير كفؤ لذلك ، خاصة عند مقارنته مع رجل بمكانة صلاح الدين ، الواضع تحت تصرفه جَميع طاقات سورية الإسلامية ومصر .

كان من المفترض بكي هذا ، على الأقل ، أن يقصر جهوده على الدفاع البحت ، تجنباً من الوقوع في خسائر لا يمكن تعويضها . ولكن رغم ذلك ، عندما اجتاح صلاح الدين مملكة القدس من جهة جبال الجليل ، فإن الملك گي ، منصاعاً للآراء الخائبة التي قدّمها له رُنو دى شاتيّون ، وسيّد فرسان الهيكل جيرار دى ريدفور Gérard de Ridefort ، ورغم النصائح التحذيرية التي أعطاه إياها ريمون الثالث كونت طرابلس ، لم يتوانَ عن الدخول في المعركة تحت أسوأ الظروف عند حطّين بالقرب من طبريّة . وكان بالتالي مصير الجيش الفرنجي برمّته ، فيما عدا استثناءات طفيفة ، القتل أو الأسر ، حتى أن الملك گي نفسه كان من بين أسرى تلك المعركة الهائلة (4 تموز 1187 م) .

استجرّت كارثة حطّين في أثرها الانهيار الفوري والشامل لسورية الفرنجية ، ولم يكن الاستيطان الفرنجي في الواقع كما رأينا كبير الكثافة البتّة ، في حين أنه في حطّين تم قتل وأسر جميع أفراد طبقة الفرسان la chevalerie قاطبة ، ناهيك عن خيّالة السرجندية الشعبية les sergents . وبقيت المستوطنات التي استُنزفت طاقاتها البشرية تماماً خاوية من المستوطنين .

لم يبق أمام صلاح الدين إذ ذاك سوى اقتناص المدن الفرنجية الواحدة تلو الأخرى بغارات صاعقة ، وحتى المدن القوية المحصنة منها ، مثل عكّا (10 تموز 1187 م) ، ويافا وبيروت (6 آب) ، حتى أنه استطاع تحرير مدينة القدس نفسها ، التي بالرغم من قواته ، لم تستسلم إلا بعد مقاومة مشرّفة (في 2 تشرين الأول 1187 م) .

ولقد سمح صلاح الدين بأريحية كريمة ، تنمّ عن روح الفروسية العالية ، لسكان القدس من المسيحيين بمغادرة المدينة المقدّسة والجلاء عنها بحرّية وسلام ، كما أنه رفض رفضاً قاطعاً تهديم كنيسة القبر المقدّس .

كانت مملكة القدس من جرّاء ذلك قد ضاعت تماماً ، باستثناء موضع واحد فقط ، كما سنرى ، هو مدينة صُور . ومن كونتيّة طرابلس بكاملها لم ينجُ من الغزو سوى مدينة طرابلس نفسها ، مع طرطوس Tortose وحصن الأكراد[1] . وأما إمارة أنطاكية فلم يتبق منها سوى مدينة أنطاكية وقلعة المرقب[2] .

الحملة الصليبيّة الثالثة

قُبيل الساعة التي كانت مملكة القدس تتقوّض فيها في تموز 1187 م ، كان زعيم صليبي حديث المجيء إلى الأرض المقدّسة ، هو المركيز البيمونتي كونراد دى مونفيرّا[3] Conrad de Montferrat ، قد نزل في صُور ودافع عنها في وجه صلاح الدين . وبفضل هذا الرّجل القوي أضحى لصور ، الناجية من نكبة الاجتياح الكبرى ، في الأيام القادمة دور المنطلق لإعادة الغزو الفرنجي من جديد .

فيما تلا ذلك ، كان ملك القدس السابق گي دى لوزينيان ، الذي وقع أسيراً بيد صلاح الدين في حطّين ، قد استردّ حريته على يد آسره ، فما كان منه إلا أن جمع قوات جديدة وباشر بإعادة غزو مدينة عكّا من قوات صلاح الدين . واستمر حصار عكّا ، الذي بدأ في نهاية شهر آب من عام 1189 م ، لغاية عامين اثنين ، ووجد المحاصِرون أنفسهم – هم الآخرون – محاصَرين من قبل صلاح الدين ، فانصرف الجيشان إلى حرب خنادق مضنية .

---

(1) هي القلعة المعروفة في أيامنا بقلعة الحصن شرقي طرطوس ، بين حمص وصافيتا .

(2) استعمل المؤلف هنا للتعبير عن كلمة «قلعة» كلمة château ، التي تعني في أوروبا القرون الوسطى : قصر الأمير الإقطاعي ، الذي كان بمثابة القلعة بنفس الوقت . بينما تستخدم كلمة citadelle للتعبير عن القلاع الكبيرة الرئيسية وكذلك forteresse للحصون و fort للحصون الأصغر حجماً .

(3) يلفظ اسمه بالإيطالية : كونرادو دي مونفرّاتو Conrado di Monferrato ، وهو إيطالي من البيمونته Piemonte ، إقليم يقع في شمال غرب إيطاليا . أما كلمة marquis فكتبناها بالمألوف في العربية رغم أنها بالفرنسية تلفظ «ماركي» بمد الياء دون نطق لحرف s .

أما الغرب الذي لم يحرّك ساكناً لإنقاذ مملكة القدس في الوقت المناسب فقد بدأت مشاعره أخيراً بالتحرك ، واستثار سقوط المدينة المقدّسة قيام حملة صليبية ثالثة شارك فيها أهم ثلاثة حكام في ذلك الوقت ، هم : الإمبراطور الجرماني فريدريك باربا روسّا[1] «Friedrich «Barbarossa ، وملك فرنسا فيليب أوگست Philippe Auguste ، وملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد Richard cœur de Lion .

ولما كان فريدريك باربا روسا أول المتهيئين للانطلاق ، فقد اجتاز بجيش جرّار الأقاليم البيزنطية في أوروبا ، ثم دلف إلى آسيا عبر گاليپولي Gallipoli (نهاية آذار 1190 م) ، واجتاز كذلك الأقاليم البيزنطية في ليديا وفريجيا ، ثم السلطنة السلجوقية في آسيا الوسطى ، حيث اقتحم عاصمتها قونية عَنْوةً (في 18-20 أيار 1190 م) . وبذلك تمّ له دون أية صعاب اجتياز هضبة الأناضول التركية ، التي اعتُبرت مميتة بالنسبة لكل الحملات الصليبية السابقة ، خلا الأولى منها .

كان باربا روسا يُعدّ العُدّة للنزول بسورية ويمنّي نفسه بانتصارات حاسمة لما تميَّز به جيشه من الكثرة والنظام ، وإذا به يموت غريقاً في مياه نهر سلوقية Silifke (10 حزيران 1190 م) . وعندما أمسى جيشه دون قائد تبعثر شَذَر مَذَر .

أما فيليپ أوگست وريتشارد قلب الأسد ، فقد انطلقا من ڤيزليه Vézelay للمشاركة في الحملة الصليبية ، في 4 تموز 1190 م ، لكن علاقتها التي كانت جدّ سيئة لم تُفسح المجال لتسهيل نجاح الحملة . وقد حطّوا رحالهم في صقلية للتوقف فيها قليلاً ، لكنهم مدّدوا هذه الوقفة لستة أشهر (وكان ذلك أمراً لا مبرّر له في الواقع) . ثم رسا فيليپ أوگست في 20 نيسان 1191 أمام عكّا . أما ريتشارد فعندما جنحت به العواصف باتجاه شواطئ جزيرة قبرص ، تعلّل بسوء استقبال البيزنطيين له ، لانتزاع الجزيرة من أيديهم (6 أيار – 6 حزيران 1191 م) .

بذلك كانت أولى نتائج الحملة الصليبية الثالثة – في الوقت الذي كانت فيه انتصارات صلاح الدين آخذة في تقليص سورية الفرنجية إلى مجرد شريط ساحلي ضيق – هي أنها أضافت إلى رصيدها ملحقاً بشكل جزيرة ، يمكن استعماله فيما لو طمي الخطب كملجأ للصليبيين . لقد طرأ غزو قبرص بالمصادفة ، بيد أنه ستكون له أهميته البالغة في المستقبل (أنظر الفقرة الأولى من الفصل الرابع) .

---

(1) باربا روسّا تسمية إيطالية Barba-Rossa تعني : الذقن الحمراء .

وعندما تم الالتقاء أخيراً بين فيليب أوگست وريتشارد قبالة عكّا ، هاجماها وبذلا نفسيهما بجسارة لاقتحامها ، وبالرغم من الجهود الهائلة التي بذلها صلاح الدين ، فقد تمكّنا من الاستيلاء على المدينة (في 21 تموز 1191 م) . ولكن فيليب الذي ازدادت العلاقة بينه وبين ريتشارد سوءاً ، سُرعان ما أبحر باتجاه فرنسا ، تاركاً - برغم ذلك - قوّاته تحت تصرف الحملة الصليبية (2 آب) .

خلصت بذلك قيادة هذه الحملة الصليبية إلى ريتشارد قلب الأسد ، الذي انتصر على قوات صلاح الدين في أرسوف (7 أيلول 1191 م) وفي يافا (1 و5 آب 1192 م) ، وأعادت هذه الانتصارات الباهرة بشكل حاسم التفوق العسكري للفرنجة ، ولكن دون أن تصل بهم إلى الشروع في محاصرة القدس[1] .

وبعد هذه الحرب المرهقة ، ركن ريتشارد إلى إجراء هدنة مع صلاح الدين تنصّ على التسوية السلمية (3 أيلول 1192 م) . واحتفظ الفرنجة بالساحل الفلسطيني الذي أُعيد غزوه من جديد خلال الحملة الصليبية الثالثة ، من صُور إلى يافا (بما فيه هاتين المدينتين) . أما المناطق الداخلية ، بما في ذلك القدس ، فقد بقيت في يدي صلاح الدين ، ولكن المسيحيين نالوا تصريحاً يخوّل لهم المجيء بحرّية كحجّاج إلى الأرض المقدّسة . بذلك ، أفضت الحملة الصليبية الثالثة إلى حالة من التعايش بين المسيحيين والمسلمين ، مع الحفاظ المتبادل بين الطرفين على الحد الأدنى من التسامح الديني .

إصلاح المملكة الفرنجية وإحياؤها في القرن الثالث عشر
بواعث ومظاهر جديدة

بما أن القدس بقيت في حوزة المسلمين ، فإن المملكة الفرنجية التي لا زالت تحمل اسمها ، اتخذت منذ ذلك الوقت فصاعداً عكّا[2] كعاصمة لها ، وقد قُيِّض لها البقاء على هذا النحو لمدّة قرن كامل بالضبط (1191-1291 م) .

---

(1) ومكثت القدس بأيدي المسلمين ما بعد حطين ، ما خلا فترة بسيطة بين 1229-1244 م .

(2) سمّى الفرنجة عكّا : Saint-Jean d'Acre . وفات المؤلف أن يذكر لريتشارد «مأثرة» إعدام كامل حاميتها من المسلمين (أكثر من 3000 رجل) يوم احتلها الفرنجة في 1191 م . ولنا هنا أن نقارن فعل ريتشارد بسمو أخلاق صلاح الدين وأريحيته ، عندما سمح لسكان القدس عندما فتحها بحرية الرحيل ضمن شروط يسيرة ، إكراماً لشرف المدينة .

رغم هذه الاستمرارية الطويلة غدت الفروق ملموسة ما بين العهدين ، فقد كانت المستوطنات الفرنجية في سورية وفلسطين وُجدت بين عامي 1098-1099 م بفعل الانطلاقة الروحية للحركة الصليبية . ثم في في القرن الثاني عشر تم الحفاظ عليها تحت حكم مملكة محلّية قوية ، أثبتت موجوديتها بوسائلها الخاصة لأجل غايات سياسية أو عسكرية أو إقليمية ، وفي الغالب لمنفعة طبقة من النبلاء ذات أصل فرنسي . ومنذ أن تم ترميم هذه المستوطنات جزئياً بعد كارثة عام 1187 م[1] على يدي الحملة الصليبية الثالثة التي بدأت عام 1191 م ، صارت تستمدّ أسباب بقائها من المعونات الدائمة الآتية من الغرب ، أكثر من اعتمادها على الأُسر الحاكمة المحلّية ، التي أمست مُذذاك فصاعداً تتراخى وتضعف بازدياد .

في حين أننا نجد أن الاهتمام الذي أبداه الغرب فيما بعد باتجاه الشرق اللاتيني لم يعد يقتصر على مجرد الاعتبارات الدينية ، لا بل غدا معنيّاً بالشؤون الاقتصادية ، التي بلغ الاهتمام بها إلى درجة التركيز على احتلال المرافئ السورية لمصلحة التجارة الفرنجية في المشرق . ومنذ ذيّاك الحين ، اضطلع بهذا الدور بعض فئات التجار الجنويين والبيزيين والبنادقة ، وهي فئات وإن كانت عاميّة ، إلا أنها كانت ذات سلطة محسوسة بما تتمتع به من الغنى ، الذي قادها في آخر المطاف إلى أنها كادت تتبوّأ مكانة أرفع من مكانة طبقة النبلاء الفرنسيين .

يمكن لنا أن نستخلص من ذلك أن عام 1098 م كان العام الذي وُجدت فيه سورية الفرنجية من حيث المبدأ والأساس ، أما في القرن الثالث عشر فإن هذه الدولة لم تنتعش وتستمر واقفة على قدميها إلا بفضل تجارة التوابل .

هنري دى شامپاني وأموري دى لوزينيان

خلال الحملة الصليبية الثالثة اشتجر النزاع على تاج «مملكة القدس» ، أو لنقل بالأحرى عكّا ، ما بين الملك السابق گي دى لوزينيان الذي يعضده الملك ريتشارد قلب الأسد ، وبين كونراد دى مونفيراّ الذي أصبح سيّداً لصور والذي يحظى بدعم الملك فيليپ أوگست .

---

(1) يريد بكارثة عام 1187 هـ معركة حطّين وسحق جيش اللاتين وفتح بيت المقدس على يدي البطل الخالد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي .

ولما وقف بارونات فلسطين من كَي موقف العداء (حيث لم يغفروا له ما قد جنته يداه في كارثة حطين) ، فقد عوّض ريتشارد هذا الحاكم بالتنازل له عن جزيرة قبرص (عام 1192 م) - (انظر الفقرة الأولى من الفصل الرابع) . في أثناء ذلك خلا السبيل لكونراد دى مونفيراّ ، الذي كان قد تزوّج من الوريثة الأخيرة لأسرة القدس الحاكمة هي الأميرة إيزابيل Isabelle ، فأُعلن ملكاً لكن القدر لم يمهله ، فلقي مصرعه على يد أحد أفراد الطائفة الإسماعيلية (في 28 نيسان 1192 م)[1] .

وبمقتل كونراد ، حوّل البارونات تأييدهم باتجاه قائد صليبي فرنسي ، هو هنري الثاني دى شامپانْيْ Henri II de Champagne ، الذي زوّجوه من إيزابيل . فحكم هنري سورية الفرنجية بعين الحذر ما بين عامي 1192-1197م . وقد عمل غاية جهده للحفاظ على الهدنات المبرمة مع حكام الأسرة الأيوبية ، التي أسّسها صلاح الدين ، على اعتبار أنها بقيت السيدة المطلقة لسورية الإسلامية (حلب ودمشق والقدس) ، فضلاً عن مصر .

وبوفاة هنري دى شامپانْيْ (في 10 أيلول 1197 م) ، أحال البارونات تاج «القدس» (أي عكّا طبعاً) إلى ملك قبرص أموري دى لوزينيان Amaury de Lusignan (أنظر الفقرة الأولى من الفصل الرابع) . واتّسم عهد هذا الحاكم في عكّا (1197-1205 م) باسترجاع مدينة بيروت من أيدي المسلمين (في 24 تشرين الأول 1197 م) ، وقيام أموري إثر ذلك بتجديد الهدنة مع السلطان الأيوبي الملك العادل أخي صلاح الدين وخليفته الأساسي ، الذي تنازل بموجب هذه الهدنة للفرنجة عن مدينة صيدا (أيلول 1204 م) .

كانت مساعي الوفاق مع المسلمين ، بالنسبة لأموري ، أكثر جدوى من الحملة الصليبية الرابعة ، تلك التي استثيرت في الغرب بمساعي البابا إينوسان الثالث Innocent III بغية غزو القدس من جديد ، ثم انحرفت عمداً عن هدفها ، فبدلاً من أن تمضي لمساندة بارونات عكّا ، راحت تؤسس إمبراطورية لاتينية في القسطنطينية لم تكن في الحسبان (انظر الفقرة الثانية من الفصل السادس) .

---

(1) رغم أن مقتل كونراد نُسب إلى الحشيشيّة فالمنطق يشير بكل قوة إلى الملك ريشارد صاحب المصلحة في قتله لسببين : انفراد كونراد بالصّلح مع صلاح الدين ، ورغبة ريتشارد باحتجان عرش القُدْس لأسرته دون سواها ، حيث أن الكونت هنري دى شامپاني هو ابن أخت ريتشارد . راجع كتابنا : سيرة السّلطان النّاصر صلاح الدّين ، ص 357 .

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن هذا «الانحراف» سبّب مضاراً خطيرة لسورية الفرنجية ، فقد حرمها من تعزيزات لم يكن بالإمكان الاستغناء عنها ، كما أدّت بعثرته لقوى الفرنجة ما بين عكّا والقسطنطينية إلى إهزال المستوطنات الفرنجية في الأرض المقدّسة . حتى أنه يجوز لنا أن نقول إن قيام هذه الإمبراطورية اللاتينية العابرة قد أفضى إلى تجميد الحياة في سورية الفرنجية[1] .

بوفاة أموري دى لوزينيان (عام 1205 م) ، تم انفصال تاجي مملكتي قبرص و«القدس» من جديد . ففيما بقي الأول لآل لوزينيان ، آل الآخر إلى الإبنة التي أنجبتها إيزابيل من زوجها كونراد دى مونفيراّ ، هي الأميرة ماري Marie (1205–1212 م) .

وعلى النقيض من ذلك ، تألّف في الدول الفرنجية في الشمال تحالف ، فقد كان آخر كونتات طرابلس ريمون الثالث (توفي عام 1187 م) قد تبنّى حدثاً من أبناء أسرة أنطاكية الحاكمة . وكانت النتيجة أن هذا الأمير الصغير ، بوهميون الرابع صاحب أنطاكية Bohémond IV d'Antioche ، حكم بعد بضعة سنين في آن واحد كلاً من طرابلس (1189 م) وأنطاكية (1201 م) . ومكثت إمارة أنطاكية وكونتيّة طرابلس معاً منذ ذلك الحين تحت نظام الوحدة الفردية .

جان دى بريين والحملة الصّليبية الخامسة

في عام 1210 م تزوّجت الملكة الشابة ماري من البارون الشامپانيّ جان دى بريين Jean de Brienne ، الذي مع أنه كان في العقد السادس من العمر أصبح ملكاً مليئاً بالحيوية ، بل وبدا حتى بمظهر فارس لا تعيبه عائبة .

وفي عام 1216 م ، رتّب البابا أونوريوس الثالث Honorius III لإعلان الحملة الصليبية الخامسة . ثم في شهر أيلول من عام 1217 م ، نزل حاكمان صليبيان في عكّا ، هما ملك هنگاريا أندريه الثاني André II ودوق النمسا ليوپولد السادس Leupold VI ، ولكن المسيحيين مُنوا بالفشل أمام قلعة جبل الطور الأيوبية (29 تشرين الثاني – 7 كانون الأول 1217 م) . وعلى أثر هذا الإخفاق عاد أندريه الثاني إلى أوروبا .

---

(1) خير مرجع عن حملة القسطنطينية هو كتاب ڤيلاردوان Geoffroi de Villehardouin .

ومع ذلك ، قرر جان دى بريين ، ما دام الصليبيون الآخرون – من فرنسيين وإيطاليين وفريزيين[1] – آخذين في النزول في الأرض المقدّسة ، أن يهاجم مصر ، قلب الإمبراطورية الأيوبية . وكان هذا تخطيطاً صائباً منه : «فإن مفاتيح القدس تكمن هناك في القاهرة» .

ومضى الفرنجة يحاصرون دمياط ، عاصمة الدِّلتا الشرقية (أيار 1219 م) ، وتم لهم احتلالها أخيراً (في 5 تشرين الثاني 1219 م) . وهذا ما حمل السلطان الأيوبي الملك العادل على العرض بتسليم القدس مقابل استرجاع دمياط . وبدا من خلال ذلك أن هدف الحملة الصليبية قد بات بمتناول اليد ، ولكن ما أبداه المفوض البابوي بيلاج Pélage من عدم التساهل (وكان هذا الحبر قد حلّ محل جان دى بريين في قيادة الجيش الفرنجي) ، قد أدّى إلى سحب العرض المذكور .

ثم في تموز من عام 1221 م ، اتخذ بيلاج ، رغم معارضة جان دى بريين ، قراراً جنونياً باقتحام القاهرة قُبيل فيضان نهر النيل بقليل . وكان من حسن حظ الصليبيين الذين غمرتهم مياه الطوفان من جميع الجهات أن السلطان سمح لهم بالانسحاب مقابل تسليمهم لدمياط (في 30 آب 1221 م) .

حملة فريدريك الثاني الصليبية

في عام 1225 م ، زوّج جان دى بريين ابنته إيزابيل Isabelle من الإمبراطور فريدريك الثاني Friedrich II ، الإمبراطور الجرماني وملك صقلية . وبما أن بريين لم يكن من حيث القانون أكثر من وصي على ابنته ، فإن مقاليد حكم المملكة الفرنجية انتقلت تلقائياً إلى فريدريك الذي ما كان منه ، على الأثر ، إلا أن أقصى بريين العاثر الحظ بقسوة .

كانت البابوية قد حبّذت هذا الزواج ، متأملة تجنيد القوى التابعة للإمبراطورية الجرمانية المقدّسة وبمملكة صقلية لصالح الحركة الصليبية . ولهذا فقد كان البابا گريگوار[2] التاسع Grégoire IX يحثّ فريدريك على الاشتراك في

---

(1) نسبة إلى فريزلاند Friesland ، وهي منطقة تقع ما بين هولندا وألمانيا ، تتألف من مجموعة سهول تجاور بحر الشمال .

(2) سبق أن ذكرنا أن اسم گريگوار بالفرنسية يقابل گريگوريوس باللاتينية .

الحركة الصليبية ، ولكن هذا العاهل الذي كان يبدى تجاه رعاياه من العرب في صقلية تعاطفاً نحو الإسلام ، استمرّ في إرجاء حركته الصليبية ، وهذا ما حمل گريگوار التاسع في النهاية على حرمانه من الكنيسة (عام 1227 م) . وفي الواقع ، كان فريدريك أثناء ذلك في حالة تفاوض انفرادي مع سلطان مصر الملك الكامل ، ذلك بأن سلطان مصر الذي كان في حالة نزاع مع شقيقه سلطان دمشق ، اعتزم الاتكال على معونة الإمبراطور .

ركب فريدريك الثاني البحر أخيراً باتجاه المشرق (في 28 حزيران 1228 م) ، فتوقف في قبرص (21 تموز – 3 أيلول) حيث – كما سنرى لاحقاً (في الفقرة الأولى من الفصل الرابع) – أعاد لنفسه الوصاية على الملك الشاب هنري الأول دى لوزينيان Henri I^er de Lusignan . ولما نزل في عكّا في 7 أيلول 1228 م ، أفاد من صداقته مع السلطان الملك الكامل لإرساء قواعد وفاق ، كانت الغاية منه كما رسم في مخيّلته إنهاء عصر الحملات الصليبية ، ووضع حدٍّ من الطرفين للحرب المقدّسة ، وذلك بإنشاء نظام من التسامح الديني .

وبموجب هذه المعاهدة ، التي كانت متقدّمة كثيراً عن مدارك ذلك العصر ، والتي أُبرمت في يافا في 11 شباط 1229 م ، شرع السلطان في إعادة المدن المقدّسة الثلاث إلى الفرنجة ، وهي : القدس ، وبيت لحم ، والناصرة ، وذلك فضلاً عن إقطاع تبنين la seigneurie de Toron في الجليل الأعلى[1] ، والأرباض الداخلية لمدينة صيدا على الشاطئ الفينيقي .

هذه المقايضة الإقليمية التي تم التوصل إليها دون قتال ، بفضل البراعة السياسية لفريدريك الثاني ، صاحبها شيء من السكينة الدينية ، فإن القدس رغم عودتها سياسياً إلى أيدي الفرنجة ، اعتُبرت مدينة مقدّسة ومُباحة لأتباع الديانتين الإسلامية والمسيحية ، وبَدَت خاضعة لسيادة طائفية مزدوجة . ولقد استعاد المسيحيون فيها كنيسة القبر المقدس ، فيما احتفظ المسلمون بقبّة الصخرة (مسجد عمر) وبالمسجد الأقصى[2] .

---

(1) تقع تبنين Toron في جنوب لبنان ، إلى الشرق من قانا شمالي الجليل الأعلى .

(2) إثر هذه المعاهدة بين الملك الكامل الأيوبي والإمبراطور فريدريك الثاني قائد الحملة الصليبية السادسة (626 هـ = 1229 م) بقيت القُدس في أيدي الفرنجة 15 عاماً ، إلى أن انتزعها من أيديهم الخوارزمية عام 1244 م ، فما عادوا يحلمون بعدُ بمُلكها .

ودخل فريدريك الثاني إلى مدينة القدس المسترجعة في 17 آذار 1229 م ، وحمل إلى كنيسة القبر المقدس التاج الملكي ، ولكن الحرمان الذي أنزله گريگوار التاسع به لحقه حتى إلى القدس ، وحرّض ضده بارونات الأرض المقدّسة والمنظّمات العسكرية ، وبذا عمّ الشجار ما بين أنصار البابا وأنصار الملك[1] في سورية . فما كان من فريدريك إلا أن عاد إلى عكّا في أول أيار 1229 م ، في جوّ يُنذر بالحرب الأهلية .

ثم بعد رحيل فريدريك الثاني ، شرع بارونات الأرض المقدّسة وزعيمهم جان ديبلان[2] Jean d'Ibelin سيّد بيروت ، الذين تهدّد نفوذ فريدريك المطلق بحرمانهم من امتيازاتهم ، شرعوا في محاربة ممثلي فريدريك وأعوانه . وبدأت الحرب أولاً في جزيرة قبرص ، التي طرد جان ديبلان منها أتباع الإمبراطور (تموز 1229 – أيار 1230 م) – (انظر الفقرة الأولى من الفصل الرابع) .

ثم في شباط 1231 م ، أرسل فريدريك الثاني إلى المشرق حملة عسكرية بقيادة ريكاردو فيلانجييري Riccardo Filangieri ، الذي انتزع بيروت من يدي جان ديبلان واحتلّ صُور بالمثل . وفي مواجه فيلانجييري تشكّلت في عكّا حكومة ذاتية مشتركة تحت إشراف جمعية رهبان سان أندريه المحلية Saint-André ، وبتوجيهات جان ديبلان . ثم استطاع فيلانجييري أن يهزم جان عند موقع «كازال أمبير»[3] ، ما بين صُور وعكّا (في 3 أيار 1232 م) ، وتوجه إثر ذلك إلى قبرص ليعيدها إلى حظيرة الطاعة ، ولكنه هُزم هناك بدوره على يد جان ديبلان في أگريدي Agridi (في 15 حزيران 1232 م) . ولم يتبقّ بأيدي أتباع الإمبراطور المطرودين من قبرص وبيروت غير صُور التي احتفظوا بها لبعض الوقت .

---

(1) بالفرنسية : les guelfes et les gibelins ، أي البابويون والملكيون .

(2) هذه أصح طريقة لكتابة اسمه بالعربية (ديبلان) عن الفرنسية d'Ibelin . وكان بعض كتّابنا جعلوها «الإبليني» وبعضهم الآخر جعل الاسم «يوحنا دي إبلين» ، وهو غلط ، لأن الاسم Ibelin (موضع بالساحل الفلسطيني يعرف بيَبْنى) يلفظ بالفرنسية : إيبلان ، لا يغرّنك الحرف i فهو في الفرنسية يُنطق بحسب موقعه من الكلمة ، إما كالياء المعهودة أو الألف أو الفتحة المتوسطة المدّ ، كقولهم : matin ماتّان ، moulin مولان .

(3) بالفرنسية : Casal-Imbert ، ويقع هذا الموضع شمالي عكا بحوالي 10 كم على طريق الناقورة وصور ، عند بلدة الرشيدية التي قامت بمحيطها في عصرنا مستوطنة نهاريا الإسرائيلية .

ثم في 12 حزيران 1243 م ، قام باليان الثالث ديبلان Balian III d'Ibelin وهو ابن جان ، بانتزاع هذا الموقع الأخير من أيديهم[1] ، وسلّمه بالتالي إلى أحد أقربائه ، وهو فيليب دى مونفور Philippe de Montfort .

لقد أدّى طرد أتباع الإمبراطورية ، في الواقع ، إلى تحويل مملكة الأرض المقدّسة إلى جمهورية اتحادية تتألف من الإقطاعيات البارونية baronnies ومن البلدات التجارية ، وقد أدارت هذه الجمهورية خلال فترة ما أسرة إيبلان الإقطاعية القوية . وكان البارونات دائماً معترفين نظرياً بملكية فريدريك الثاني وابنه كونراد الرابع ، ولكنهم كانوا عملياً في حالة ثورة علنية ضده .

حملة عام 1239 الصليبية

حثّ البابا گريگوار التاسع في عام 1239 م على تشكيل حملة صليبية جديدة ، شارك فيها عدد من البارونات الفرنسيين ، ومنهم بالتحديد تيبو الرابع Thibaut IV كونت شامباني Champagne وملك ناڤار Navarre ، ودوق بورگوني Bourgogne هوك[2] الرابع Hugue IV ، وكونت بروتانْيْ Bretagne پيير موكلير Pierre Mauclerc ، والكونت هنري دى بار Henri de Bar . وفي بداية هذه الحملة الجديدة ، وقعت كتيبة فرنجية بقيادة الكونت دى بار في الشرك وأُبيدت بكاملها بالقرب من غزّة (12–13 تشرين الثاني 1239 م) .

غير أن مجرد حضور الصليبين في المنطقة كانت له نتائجه المفيدة ، بفعل الفرقة التي دبّت ما بين المسلمين ؛ وكانت الإمبراطورية الأيوبية (سلالة صلاح الدين) متنازع عليها ما بين أكبر حاكمين فيها : الصالح أيوب سلطان مصر ، والصالح إسماعيل سلطان دمشق . ولكي يكسب إسماعيل حلف الفرنج ضد منافسه ، فقد ردّ عليهم الجليل ، بما في ذلك طبريّة (عام 1240 م) .

---

(1) يعني صور في الساحل اللبناني جنوباً . وبقيت صور في أيدي الصليبيين ، حتى قام بفتحها المماليك في أيار 1291 م ، بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون .

(2) نقول في لفظ هذا الاسم ما نقوله في اسم «هنري» ، فالواجب كان أن نكتبهما كما ينطقهما الفرنسيون : أوك – آنري ، على اعتبار كون حرف H حرفاً مكتوباً غير منطوق في أكثر اللغات اللاتينية (الفرنسية والإيطالية والإسپانية) . غير أن العادة جرت في بلادنا العربية أن نكتبهما وننطقهما : هوك ، هنري . فأمرنا لله !

وللغاية ذاتها أعاد إليهم أيوب عسقلان . لكن هذه لم تكن سوى مكاسب مؤقتة ، ففي عام 1244 م ، تم انتزاع القدس من الفرنجة بشكل قاطع ونهائي على أيدي سرايا من الأتراك الخوارزمية ، وكذلك في عام 1247 م فقد الفرنجة من جديد كلاًمن طبرية وعسقلان .

حملة القديس لويس الصليبية

حمل ضياع القدس ، للمرة الثانية في عام 1244 م ، ملك فرنسا لويس التاسع Louis XI إلى الخروج بنفسه على رأس حملة صليبية ، إلا أنه لم يستطع وضع مشروعه هذا قيد التنفيذ إلا عقب أعوام أربعة . فأبحر إلى جزر الإيگمورت Aigues-Mortes في 25 آب 1248 م ، ورسا في 17 أيلول في قبرص حيث أمضى فيها وقفة دامت ثمانية أشهر .

عزم لويس التاسع ، كما فعل بالأمس القريب جان دى بريين ، على مهاجمة مصر ذاتها التي كانت آنذاك بمثابة قلب الإمبراطورية الأيوبية أكثر من ذي قبل ، كذلك فإن حلّ مشكلة الأرض المقدّسة يكمن دائماً في القاهرة . وهكذا نزل الملك في دمياط Damiette ، واستولى عليها في اليوم التالي (5-6 حزيران 1249 م) . لكن لويس لم يستطع الاستفادة من دمياط لمباشرة مسيرته فوراً باتجاه القاهرة ، ذلك لأن فيضان النيل (ما بين تموز وأيلول) كان بدأ آنذاك . ولهذا قبع الجيش في خمود تام بدمياط قرابة الخمسة أشهر . وعرض السلطان الصالح أيوب إعادة القدس إلى الفرنجة مقابل أن يعيدوا إليه دمياط ، لكن كما فعل المفوّض البابوي پيلاج Pélage بالأمس القريب رفض لويس التاسع هذا العرض .

في 20 تشرين الثاني باشر الملك لويس تحرّكه صوب القاهرة ، لكن الفرنجة ألفوا الطريق مقطوعاً عليهم بقناة «البحر الصغير» والتي أقام المصريون خلفها مدينة «المنصورة» الحصينة . وفي 8 شباط 1250 م نجح لويس في اجتياز القناة ، بيد أن أخاه روبير دارتوا Robert d'Artois الذي اندفع بقوّاته متهوّراً نحو المنصورة قُتل فيها ، وأُبيدت الطليعة التي كانت تحت قيادته على بَكرة أبيها . استعاد المصريون رباطة جأشهم وعمل لويس التاسع كل ما بوسعه ليدحرهم ، لكنه رغم بسالته الفائقة اضطر للبقاء في موقف الدفاع دون أي أمل ببلوغ المنصورة .

في غمرة هذا الوضع الحرج ، كان الإحساس بالخطر يملي عليه ضرورة القتال منسحباً نحو دمياط ، لكن لويس التاسع اعتبر أن شرفه العسكري يحول بينه وبين هذه الفعلة الشائنة . ثم عندما أذعن لتلك الضرورة كان الوقت قد فاته نهائياً . وألفى الجيش الفرنسي نفسه ، إثر فتك الطاعون فيه وتطويقه من قبل المصريين ، مجبراً على الاستسلام (في 6 نيسان 1250 م) .

في تلك الأثناء ، كان سلطان مصر الجديد ، تورانشاه ، قد لقي مصرعه على أيدي مجندي حرسه من الأتراك ، وهم «المماليك» الذائعو الصيت ، الذين احتجنوا مقاليد الحكم لأنفسهم (في 2 أيار 1250 م) . وكاد هؤلاء الجنود الشرسون يقضون على الملك لويس التاسع في محبسه ، ثم رضوا أخيراً بقبول الفدية عنه وعن الجيش الذي برفقته ، وقد تضمّن ذلك تسليم دمياط ودفع مبلغ 500000 ليرة ذهبية . وفي 8 أيار أبحر لويس التاسع باتجاه سورية[1] .

أمضى لويس التاسع في سورية فترة 4 سنوات (13 أيار 1250 – 24 نيسان 1254 م) ، وأنجز فيها أعمالاً على قدر كبير من الأهمية ، فقد وضع المدن الفرنجية الساحلية في حالة تأهب للدفاع ، وهي : عكّا وقيسارية ويافا وصيدا ، وأعاد الانضباط إلى صفوف الفرنجة ، وكبح جماح فرسان الهيكل Templiers . وفي مواجهة المماليك ، سعى إلى عقد حلف مع الإسماعيلية أو حشيشية جبل البهرة (في القدموس ومصياف) وزعيمهم الأكبر «شيخ الجبل» ، وسعى حتى إلى التحالف مع المغول ، الذين أرسل إليهم سفارة على رأسها الراهب الفرنسيسكاني روبروك Rubrouck (1253–1254 م) .

التجزئة الفرنجيّة

منذ أن عاد الملك لويس التاسع أدراجه إلى فرنسا (عام 1254 م) ، وقعت مملكة الأرض المقدّسة الفرنجية في حالة من التفرقة الناشبة . فمدينة عكّا ، عاصمة هذه «المملكة بغير ملك» ، والتي تألفت منها دولة ذات حكم ذاتي مشترك ، أضناها التنافس المستعر ما بين المستعمرة الجنوية والمستعمرة البندقية المحتميتين داخل

(1) وتاريخ هذه الحملة السابعة مفصّل في كتاب رائع لجان دى جوانفيل ، معاصر الحملة :
Jean de Joinville: *La vie de St. Louis.*

أسوارها ، واللتين انهمكتا خلال عامين في حرب شوارع ضروس ، وقد عرفت باسم «حرب سان سابا» Saint-Sabas (1256–1258 م) .

وإلى جانب البنادقة ، وقف حكام آل إيبلان Ibelin ، وهم أسياد بيروت ويافا ، وكذلك فرسان الهيكل Templiers ، ومعهم الفرسان التوتونيّون ، Chevaliers Teutoniques ، بالإضافة إلى المستعمرات البيزية والبروڤنسالية . أما في صف الجنويين ، فقد وقف فيليب دى مونفور Philippe de Montfort سيّد صُور الإقطاعي ، وفرسان المشفى Hospitaliers ، والمستعمرة القطلانية .

وفي النهاية ، استطاع البنادقة طرد الجنويين من عكّا ، الذين انسحبوا إلى صُور . وفي أثناء ذلك ، كانت هذه الحرب الأهلية قد سَرَت في إمارة أنطاكية – طرابلس ، حيث قام الأمير بوهيمون السادس Bohémond VI الموالي للبنادقة بمحاربة تابعه ، سيد جبيل le sire de Giblet ، ذي الأصل الجنوي والمناصر للجنويين ، والذي انتهى به الأمر إلى الموت مُغتالاً .

مسألة الحلف المغولي

لم يكن الفرنجة بأقل تشتّتاً من ذلك ، على صعيد السياسة الخارجية . ففي عام 1260 م[1] ، قام مغول فارس بأوامر هولاگو خان حفيد جنكيز خان ، بغزو سورية الإسلامية من أيدي أواخر الأمراء الأيوبيين ، فوقعت بقبضتهم كل مدن سورية الكبرى : حلب وحماة وحمص ودمشق .

وقام بعض هؤلاء المغول ، وهو بالتحديد قائدهم كتبغا ، باعتناق الديانة المسيحية على المذهب النسطوري . ومن جهة أخرى ، قام ملك أرمينيا (كيليكية) هيتوم الأكبر Héthoum le Grand ، الذي كان تحت حماية المغول ، بضمّ قواه إلى جيوشهم (انظر الفقرة الثانية من الفصل الخامس) . وقد حذا حذوه في ذلك صهره أمير أنطاكية وطرابلس بوهيمون السادس .

---

(1) أي عام 658 للهجرة ، وفي العام نفسه تمكن المماليك بقيادة السّلطان المظفّر قُطُز من سحق جيش التتار في معركة عين جالوت الفاصلة ، بعد أن كانوا دمّروا بغداد حاضرة الخلافة العباسية عام 656 هـ (=1258 م) بكل وحشية ، واتجهت أنظارهم لاحتلال مصر قاعدة الدولة المملوكية .

في مجمل الأمر ، بدا المغول وهم يدمّرون سورية الإسلامية ، كأنهم يفعلون ذلك لصالح الفرنجة ، دون قصد . ولكن بارونات الساحل الفلسطيني كانوا متخوّفين من الهمجية المغولية . وقام أحدهم ، وهو جوليان سيّد صيدا Julien de Sidon ، بمهاجمة إحدى الكتائب المغولية ، فاجترّ على نفسه نتيجة وخيمة .

وفي الختام ، قرّر مجلس عكّا الحاكم الوقوف إلى جانب مماليك مصر ، الذين كانوا يعدّون العدّة للقيام بهجوم إسلامي معاكس ضد المغول . وبفضل الحياد الفرنجي المتعاطف ، أفلح المماليك في سحق جيوش المغول في عين جالوت بمنطقة الجليل (في 3 أيلول 1260 م) ، وفي طردهم نهائياً من سورية الإسلامية .

السلطان الظاهر بيبرس

كان من أهم نتائج هزيمة المغول تبوّء المماليك مركز السيادة في سورية الإسلامية (حلب ودمشق والقدس) ، كما كان حالهم أساساً في مصر . هذا ولقد كانت هذه «الخُشداشية[1] التركية الكبرى» ، التي تمثل جيشاً نظامياً دائماً ، واحدة من خيرة التنظيمات الحربية في ذلك العصر ؛ وخصوصاً عند مقارنتها بالجيوش الفرنجية ، التي يُعتمد في تشكيلها على الجنود الإقطاعيين المؤقتين وغير المهيأين لخوض غمار الحرب ، بالإضافة إلى المنظمات العسكرية الثابتة .

أضحت السلطنة المملوكية مملكة متحدة ذات سيادة مطلقة ، يُدان لها بالطاعة من حدود النوبة إلى نهر الفرات . كان في الماضي أهم ما عزّز نجاح الفرنجة في مطلع القرن الثاني عشر وحدتهم العسكرية القوية ، المتناقضة تماماً مع التجزئة الإسلامية ، وأما الآن فقد انقلبت الآية تماماً : فتماسك عسكري إسلامي قوي ، وتجزئة فرنجية كبيرة .

---

(1) الخشداشية من مصطلحات العهد المملوكي ، وهي عبارة تركية : Hoşdaş ، تعني حرفياً التماثل والتساوي ، أما معناها الاصطلاحي فهو أخوّة السلاح وزمالة الجيش ، وكثيراً ما ترد في مصطلحات ومؤلفات العهد المملوكي . وأما حول تفوّق القدرات القتالية للمماليك وارتقاء الفنون العسكرية في عهدهم فقد صدرت مؤلفات عديدة ، أحسنها بالعربية : الفروسية في مصر في عصر سلاطين المماليك 1250-1517 م ، د. السيد الباز العريني ، دار النهضة العربية ، بيروت 1967 .

علاوة على ذلك ، تربّع في سدّة حكم دولة المماليك ، في الفترة الممتدة بين عامي 1260–1277 م ، رجل حرب من الطراز الأول ، هو السلطان الظاهر بَيْبَرس[1] الذي صمّم على إلقاء الفرنجة في البحر ، وباشر على الفور في تنفيذ هذا المهمّة دون تلكؤ .

بعد ضربات متوالية في صدر الفرنجة ، استطاع الظاهر بيبرس أن يستخلص منهم قيسارية (في 27 شباط 1265 م) ، وأرسوف (26 نيسان 1265 م) ، وصفد (25 تموز 1266 م) ، ويافا (7 آذار 1268 م) ، وشقيف أرنون Beaufort (15 نيسان) ، وأنطاكية (أيار 1268 م) . وانحسرت أملاك أمير أنطاكية وطرابلس ، بوهيمون السادس ، إلى مجرد كونتيّة طرابلس .

ثم أدّت الحملة الصليبية الثامنة ، التي قادها الملك لويس التاسع أيضاً ، إلى خفض انطلاقة بيبرس ، ولكن الانحراف المميت لهذه الحملة باتجاه تونس ، حيث لقي لويس التاسع حتفه (في آب 1270 م) ، بدّد كل آمال الفرنجة . ثم تمكّن بيبرس من انتزاع حصن صافيتا (الحصن الأبيض) le Chastel Blanc من الفرنجة (في شباط 1271 م) ، ومن بعده قلعة فرسان المشفى (الإسبتارية) الكبرى ، أي حصن الأكراد[2] le Crac des Chevaliers (15 آذار – 8 نيسان 1271 م) .

وآل تاج «القدس» بأن أسنده بارونات عكّا إلى ملك قبرص هوك الثالث Hugues III (في 24 أيلول 1269 م) ، ولكن الفوضى الضاربة بين صفوف البارونات والحكام المشاركين ، وعداوة فرسان الهيكل (الدّاويّة) لهوك ، ثبّطا من عزيمة هذا الأخير ، فما كان منه إلا أن ولّى متراجعاً أدراجه نحو جزيرة قبرص (1276 م) .

وبادر ملك صقلية شارل دانجو Charles d'Anjou ، الذي كان يعضده السيّد الأكبر لفرسان الهيكل گيّوم دى بوجو Guillaume de Beaujeu ، بالمطالبة بتاج القدس . ومضى نائبه روجيه دى سان سيڤيرينو Roger de San-Severino يحاول الاستحواذ على عكّا (عام 1277 م) ، ولكن اللعنات الصقلّية أتت ، في عكّا أيضاً ، على ما تبقّى من سلطة آل آنجو (عام 1282 م) .

---

(1) يكتب اسمه بالتركية : Bey-Pars ، ومعناه : أمير – فهد .

(2) هي القلعة الشهيرة المعروفة في أيامنا بقلعة الحصن .

سقوط آخر المعاقل الفرنجية في سورية

لم تكن النزاعات الداخلية في كونتيّة طرابلس بأقل اضطراماً من غيرها ، فقد كان الكونت بوهيمون السابع Bohémond VII في حرب شاملة مع تابعه گي الثاني سيّد جُبَيل Guy II de Giblet ، الذي هُزم ولقي مصرعه بالدفن حيّاً (عام 1282 م) . ثم بوفاة بوهيمون السابع (عام 1287 م) ، أعلن لاتين طرابلس بطلان سلالته الحاكمة ، وبإيعاز من أسرة جُبَيل الحاكمة لاذوا بملء إرادتهم إلى الحماية الجنوية (فكما رأينا كان حكام جُبَيل من أصل جنوي) .

بيد أن المماليك لم تَفُتْهم الاستفادة من كل هذه الخلافات ، وفي 28 نيسان 1289 م ، استولى سلطانهم المنصور قلاوون على طرابلس ، وتم إعدام جميع السكان الفرنجة فيها[1] .

أما عكّا ، عاصمة «مملكة القدس» ، فلم تلبث أن وقعت في المصير ذاته ، ويدأ السلطان المملوكي الأشرف خليل ابن السلطان قلاوون وخليفته في الحكم في حصارها في 5 نيسان 1291 م . وقد اضطلع بقيادة الدفاع من جانب الفرنجة السيّد الأكبر لفرسان الهيكل گيوم دى بوجو Guillaume de Beaujeu ، والسيّد الأكبر لفرسان المشفى جان دى ڤيّيه Jean de Villiers ومقدّمهم ماتيو دى كليرمون Matthieu de Clermont ، وجان دى گرايّي Jean de Grailly قائد الوحدة الكاپيتية ، وأوتو أوف گراندسن[2] Otto of Grandson قائد الوحدة الإنكليزية . وبعد مقاومة مشرّفة ، تم للمماليك اقتحام المدينة عَنوة وسقطت في أيديهم أخيراً (18 – 28 أيار 1291 م) .

---

(1) هذه الحادثة يذكرها المؤلف لكنه نسي عند وقوع عكّا بيد جيوش الحملة الصليبية الثالثة عام 1191 م أن يذكر جريمة إعدام سكانها بأسرهم ، وعددهم قرابة 3000 شخص . أما احتلالهم للقدس عام 1099 م فأعدموا بها كما ذُكر 70 ألفاً من السكان .

(2) هكذا يُكتب اسمه بالانكليزية ، أما المؤلف فقد كتبه بالفرنسية : Otton de Granson ، أوتّون دى گرانسون ، وهذا مثال آخر على مشكلة ترجمة الأسماء من لغة إلى أخرى . ودوماً نتمنى لو يحافظ المترجمون على شكل الاسم بلغته الأصلية ، لا أن يقولوا مثلاً : وليام الصوري المؤرخ الصليبي ، أو وليام أوف تاير ، بينما اسمه بالفرنسية : گيّوم دى تير . أو أن يقولوا : ملك القدس جاي أو غاي أو غوي دي لوزجنان ، بينما يُلفظ اسمه بالفرنسية بطريقة مختلفة تماماً : گي دى لوزينيان . إلى آخر ذلك من التسميات الغريبة العجيبة ، التي تنمّ عن ضعف معيب في الثقافة وأصول الترجمة .

أما باقي المواقع فقد تم الجلاء عنها دون قتال ، وكذلك سقطت صُور في أيار من العام نفسه ، وصيدا وبيروت في تموز ، وطرطوس في آب .

لقد عاشت سورية الفرنجية ردحاً من الزمان ، ولكن يمكن لنا القول بأنها بما أفرزته من خلافات داخلية متلاحقة ، إلى أن حانت ساعتها الأخيرة ، كانت تماماً كمن يسعى إلى حتفه بظلفه أو ينتحر بيده .

* * *